



مُزْنُ السَّكِينِ وَالسُّكُونِ

شرح قصيدة

لَا يَكْثُرُ هُمٌّ مَا قَدْ يَكُونُ





الطبعة الثانية
٢٠٢١م - ١٤٤٢هـ

مُزْنُ السَّكِينَةِ وَالسُّكُونِ

اسم الكتاب

عمر بن محمد بن سَالِم بن حفيظ

تأليف

٢٤×١٧

قياس القطع

١٤٦

عدد الصفحات

اعتنى بخدمته

مَكْتَبُ النُّورِ

alnoortarim@gmail.com

عمر بن محمد باحماله

تصميم فني وإخراج



مُرْجَنُ التَّسْكِينِ وَالسُّكُونِ

شرح قصيدة

لَا يَكْثُرُ هَمٌّ أَقْدَرُ يَكُونُ

للعلامة العارف بالله الحبيب: عبدالله بن علوي بن محمد الحداد

شرح العلامة الحبيب

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

النور
AL NOOR
تريم - حضرموت
Tarim - Hadramout

هذا الكتاب تم جمعه من دروس ألقاها الحبيب العلامة عمر بن محمد بن حفيظ في الدورة الخامسة والعشرين بدار المصطفى لعام ١٤٤٠هـ



نبذة مختصرة عن صاحب القصيدة

الحبيب عبدالله بن علوي بن محمد الحداد

هو السيد الشريف والإمام العظيم والبحر الواسع جامع الأوصاف العلمية وبحر العلوم اللدنية قطب الدعوة والإرشاد عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد العلوي. يتنسب إلى سلالة الإمام علوي عمّ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي^(١)، ويتنهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء، بنت الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولد الإمام الحداد في مدينة تريم يوم الاثنين (٥/ صفر سنة ١٠٤٤ هـ) ولما بلغ من العمر أربع سنوات فقد بصره وذلك بسبب مرض الجدري، ولكن الله سبحانه وتعالى عوضه بنور البصيرة فما أسعده بهذا التعويض، فحفظ القرآن وجدّ واجتهد في طلب العلم، فقرأ أمهات الكتب واستوعبها وأخذ عن شيوخ عصره العلوم المختلفة فحفظها.

يقول الإمام الحداد عن نفسه: (كنت من حين الصغر وأنا في الجدّ والعبادة وأنواع المجاهدة)^(٢).

وأما عن شيوخه: فمنهم السيد الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس^(٣)، والسيد الحبيب عقيل بن عبدالرحمن السقاف^(١)، والسيد عبدالرحمن بن شيخ عديد^(٢)، والسيد

١- (١) الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي: شيخ الشريعة وإمام الحقيقة، سيد الطائفة الصوفية بحضر موت، ولد بتريم وتوفي بها سنة ٦٥٣ هـ (المشعر الروي، للشلي ٢١/٧).

٢- (٢) الإمام الحداد هو مجدد القرن الثاني عشر، د/ مصطفى البدوي (ص ٤٠).

٣- (٣) عمر بن عبدالرحمن العطاس نبغ في العلوم وصحبه خلق كثير وانتفع به نفعا عظيما، ولد بتريم وتوفي بحريضة سنة ١٠٧٧ هـ (المشعر الروي).

سهل بن أحمد باحسن^(٣) العلوي والسيد محمد بن علوي السقاف نزيل مكة^(٤). وغيرهم كثير.

تشبّع هذا الإمام العظيم منذ طفولته بمختلف العلوم الدينية والصوفية ابتداءً من الإرشاد والبداية ومروراً بالإحياء ومؤلفات الإمام الغزالي، فتوسعت مداركه وانفتحت له أبواب الفتوح المختلفة فكان بحق قطب الدعوة والإرشاد، وكعبة المريدين الذين أخذوا عنه العلوم المختلفة، وأبرزهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام أحمد بن زين الحبشي^(٥) صاحب حوطة أحمد بن زين التي تُنسب إليه، وهو إمام عظيم شرح عينية الإمام الحداد في كتاب مطوّل يُعدُّ قاموساً في أعلام الطريقة.

من تلامذته ابنه الحسن^(٦) بن الإمام الحداد والسيد العلامة عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه^(٧)، والسيد الحبيب محمد بن زين بن سميط^(٨) والسيد عمر بن زين بن سميط^(٩) والسيد عمر بن عبدالرحمن البار^(١٠)، والسيد علي بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف^(١١) والشيخ العلامة أحمد عبدالكريم الشجار^(١٢) والشيخ سليمان بن محمد باحرمي^(١٣).

٤- (١) عقيل بن عبدالرحمن السقاف ولد بتريم وتوفي بها سنة ٨٧١هـ (تاريخ شنبل ١٩٣).

٥- (٢) عبدالرحمن بن شيخ عديد: كان من كبار العلماء العاملين والأئمة المجتهدين، إذا رأى منكراً بادر إلى إزالته ولا يخاف في الله لومة لائم، صحب أبي بكر بن سالم، وأخذ عنه الحداد، توفي سنة (١٠٦٨هـ).

٦- (٣) سهل بن أحمد باحسن: إماماً فاضلاً عالماً، ولد بتريم وولي بها القضاء، وتوفي بها سنة (١٠٧٦هـ).

٧- (٤) محمد بن علوي السقاف إمام الحرمين نادرة الزمان ولد سنة ١٠٠٢ وتوفي سنة ١٠٧١هـ (المشعر الروي، ١/١٩٢).

٨- (٥) أحمد بن زين الحبشي: إماماً في العلوم العقلية والنقلية توفي بخلع راشد سنة ١١٤٥هـ (شمس الظهيرة، ٢/٤٧١).

٩- (٦) الحسن بن عبدالله الحداد: ذا وجهة وتقوى وسخاء ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٨هـ (شمس الظهيرة، ٢/٥٦٣).

١٠- (٧) عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه: علامة الدنيا من كبار العلماء والأئمة ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٦٢هـ (عقد اليواقيت، ٢/٦٧).

١١- (٨) محمد بن زين بن سميط توفي بشبام ١١٧٢هـ (عقد اليواقيت، ٢/٦٧).

١٢- (٩) عمر بن زين بن سميط: كان من الأئمة المجتهدين والعلماء المحققين والأولياء المشهورين، توفي بشبام (١٢٠٧هـ).

١٣- (١٠) عمر بن عبدالرحمن البار: إمام الأئمة الأخيار، من كمل العلماء العاملين والأئمة المحققين المجتهدين شديد الزهد والورع ولد بالقرين وتوفي بها سنة (١١٥٨هـ). ابن سميط: (بهجة الفؤاد).

وفي يوم الثلاثاء السابع من ذي القعدة سنة (١١٣٢هـ) توفي الإمام الحداد مخلفاً وراءه الذّكر الحسن والمؤلفات والرسائل في مختلف العلوم الدينية والاجتماعية والصوفية متأثراً في جلّها بمنهج الإمام الغزالي، فانتشرت مؤلفاته في بقاع الأرض وتُرجمت إلى لغات عديدة.

مؤلفات الإمام الحداد:

مؤلفات الإمام الحداد كثيرة ومتنوعة شملت علوم الشريعة والدين وطرق ومسالك أهل التصوف والزهد والعقيدة والأذكار والأدعية والحكم والاجتماع، فهي في مجملتها منهج متكامل للدارس الباحث عن الحقيقة الراغب في النجاة.

من مؤلفاته:-

- ١- كتاب النصائح الدينية والوصايا الإيمانية.
- ٢- كتاب سبيل الأذكار والاعتبار.
- ٣- الدعوة التامة والتذكرة العامة.
- ٤- الفصول العلمية والتذكرة الحكمية.
- ٥- تثبيت الفؤاد.
- ٦- رسالة المذاكرة مع الإخوان والمحبين.
- ٧- رسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة للراغبين من المؤمنين في سلوك طريق الآخرة.

١٤- (١) علي بن عبدالله بن عبدالرحمن بن علي السقاف: كان من كبار الأولياء والعلماء العاملين شديد التواضع يخدم الفقراء توفي بسيتون (١١٨١هـ).

١٥- (٢) شهاب الدين أحمد بن عبدالكريم الشجار الإحسائي لازم الإمام الحداد سبعة عشر عاماً على الدوام، وكان ذا حفظ للعلم كتب جميع مؤلفات الإمام الحداد بقلمه وحفظ من كلامه وكراماته لكثرة ملازمته له سافر بعد وفاة الحداد وأقام في الإحساء علس سيرة حميدة عبداً وناسكاً... (بهجة الزمان للحبيب محمد بن زين بن سميط. ص ٢٩٤-٢٩٥).

١٦- (٣) لمعرفة المزيد من تلاميذ الإمام الحداد، ينظر إلى كتاب رحلة في ديوان الحداد (ص ٢٥).

- ٨- النفائس العلوية في المسائل الصوفية.
- ٩- آداب سلوك المريد.
- ١٠- وسيلة العباد إلى زاد المعاد.
- ١١- الورد اللطيف.
- ١٢- الراتب الشهير
- ١٣- الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم (ديوان الإمام الحداد).

نبذة مختصرة عن صاحب الكتاب

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

هو الداعي الإسلامي العلامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ العلوي الحسيني ولد بمدينة تريم بحضرموت - الجمهورية اليمنية - يوم الاثنين الرابع من شهر محرم لعام ١٣٨٣ هـ - الموافق ٢٧ من شهر مايو ١٩٦٣ م - ونشأ بها وحفظ القرآن العظيم، وتربى تربية صالحة في أحضان والده في بيئة العلم والإيمان والأخلاق الفاضلة:

أخذ علوم الشريعة المطهرة على أيدي مَن أدركهم من علماء حضرموت ومن أجلهم والده مفتي تريم. ابتدأ التدريس وعمل في الدعوة إلى الله وهو في الخامسة عشر من العمر مع مواصلة التعلم والأخذ والتلقي.

ثم لما اشتد الوضع بسبب الحكم الشمولي الشيوعي في ذلك الوقت انتقل إلى مدينة البيضاء باليمن في أوائل شهر صفر عام ١٤٠٢ هـ الموافق شهر ديسمبر ١٩٨١ م وأقام في رباط الهدار بالبيضاء. وكان حريصاً على عقد الدروس والمجامع العلمية، كثير الخروج للدعوة إلى الله في مختلف مناطق البيضاء والحديدة وتعز..

تردد على الحرمين الشريفين بدءاً من شهر رجب عام ١٤٠٢ هـ الموافق شهر إبريل ١٩٨٢ م - وأخذ عن علمائها..

في عام ١٤١٣ هـ الموافق ١٩٩٢ م انتقل إلى مدينة الشحر بمحافظة حضرموت حيث واصل إقامة الدروس في رباط الشحر للدراسات الإسلامية،

وأقام قبلها مدة سنة ونصف تقريباً في سلطنة عمان.
ثم انتقل منها إلى مدينة تريم حيث استقر به المقام فيها واستقبل أعداد
الطلاب القادمين عليه من أنحاء مختلفة من العالم. وابتدأ تأسيس دار المصطفى
للدراسات الإسلامية عام (١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٤ م) على ثلاثة مقاصد:
✽ أخذ علوم الشريعة وما اتصل بها بالتلقي عن أهلها بأسانيدهم.
✽ تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.
✽ نشر العلم النافع والدعوة إلى الله عزَّجَلَّ.

له العديد من الرحلات في الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي إلى مختلف
الأقطار كالشام ومصر والسودان والهند وباكستان وإندونيسيا وماليزيا
وسنغافورة وبروناي وسيريلانكا وكينيا وتنزانيا وجزر القمر ودول الخليج العربي
واتصل بأسانيد كثير من العلماء في تلك الأقطار كما شارك في حضور عدد من
المؤتمرات الإسلامية.

مؤلفاته:

١. إسعاف طالبي رضا الخلاق ببيان مكارم الأخلاق.
٢. توجيهات الطلاب.
٣. شرح منظومة السند العلوي.
٤. خُلِقْنَا.
٥. الذخيرة المشرفة. وقد ترجم بعدة لغات.
٦. الخلاصة في الأذكار.
٧. الضياء اللامع بذكر مولد النبي الشافع.

٨. الشراب الطهور في ذكر سيرة بدر البدور.
٩. فيض الإمداد في خطب الجمعة والكسوفين والاستسقاء والأعياد.
١٠. المختار من شفاء السقيم.
١١. ثقافة الخطيب.
١٢. نور الإيمان من كلام حبيب الرحمن.
١٣. ديوان شعر (فائضات المن من رحمت وهاب المن)
١٤. سلسلة معالم الدعاة في طريق حبيب الله
١٥. الوصية.. للعاملين في صفوف الدعوة المحمدية.
١٦. منطلقات في بناء ذوات الداعيات.
١٧. تعايش المسلمين مع غيرهم.
١٨. مسلك أهل الفطن في شرح قصيدة «ما لذة العيش لأبي مدين».
١٩. الوسطية في الإسلام.
٢٠. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبريحكم.
٢١. مقاصد حلقات التعليم ووسائلها.
٢٢. الحياض المطهرة لواردي المدينة المنورة.
٢٣. زاد الناسك من أدعية آداب المناسك.
٢٤. سعادة المعاد والمحيا شرح قصيدة «إذا شئت أن تحيا».
٢٥. الصلوات بأسماء الله الحسنى على جامع الصفات الحسنة.
٢٦. توجيه النبيه لمرضاة باريه.
٢٧. قيس النور المبين من أحياء علوم الدين.

٢٨. الاتصال بمعاني اليقين والقرب والسَّعادة وحقيقة الخلافة .
٢٩. كتاب صلاح الأسرة ودور الأبوين في التربية (١-٢) .
٣٠. مدرسة حضر موت ومرجعية الوحي والتنزيل .
٣١. ماهية التصوف وسمات أهله .
٣٢. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال
(الجزء الأول)
٣٣. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال
(الجزء الثاني)
٣٤. المورد الأعذب الزلال من معاني رشفات أهل الكمال ونسمات أهل الوصال
(الجزء الثالث)
٣٥. فقه الطريقة والاستمساك بالعروة الوثيقة .
٣٦. مزن السكينة والسكون شرح قصيدة لا يكتر همك ما قدر يكون (هذا
الكتاب)



القصيدة



لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ * مَا قُدِّرَ يَكُونُ

لِلْإِمَامِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلَوِي بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَدَّادِ

الزَمَ بَابَ رَبِّكَ * وَاتْرُكْ كُلَّ دُونِ * وَاسْأَلْهُ السَّلَامَةَ * مِنْ دَارِ الْفُتُونِ
لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ * فَالْحَادِثُ يَهُونُ * اللَّهُ الْمَقْدَرُ * وَالْعَالَمُ شُؤُونُ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ * دَعُهُمَا وَرَاكَ * وَالتَّدْبِيرَ أَيْضًا * وَاشْهَدْ مَنْ بَرَكَ
مَوْلَاكَ الْمُهَيَّمِنُ * إِنَّهُ يَرَاكَ * فَوَضَّ لَهُ أُمُورَكَ * وَاحْسِنَ فِي الظُّنُونِ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

لَوْ وَلَمْ وَكَيْفَ * قَوْلُ ذِي الْحَمَقِ * يَعْترِضُ عَلَى اللَّهِ * الَّذِي خَلَقَ
وَقَضَى وَقَدَّرَ * كُلَّ شَيْءٍ بِحَقِّ * يَا قَلْبِي تَبَّنْهُ * وَاتْرُكِ الْمُجُونِ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

قَدْ ضَمِنَ تَعَالَى * بِالرَّزْقِ الْقَوَامِ * فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ * نُورًا لِلْأَنَامِ
فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ * وَالسَّخَطُ حَرَامٌ * وَالْقُنُوعُ رَاحَةٌ * وَالطَّمَعُ جُنُونٌ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ * كُلُّهُمْ عَيْدٌ * وَالْإِلَهُ فِينَا * يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
هَمُّكَ وَاعْتِمَائُكَ * وَيَحْكُ مَا يُفِيدُ * الْقَضَا تَقَدَّمَ * فَاعْنَمِ السُّكُونُ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

الَّذِي لَغَيْرِكَ * لَا يَصِلُ إِلَيْكَ وَالَّذِي قُسِمَ لَكَ * حَاصِلٌ لَدَيْكَ
فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكَ * وَالَّذِي عَلَيْكَ فِي فَرْضِ الْحَقِيقَةِ * وَالشَّرْعِ الْمَصُونِ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

شَرْعِ الْمُصْطَفَى * الْهَادِي الْبَشِيرِ خَتَمِ الْأَنْبِيَا * الْبَذْرِ الْمُنِيرِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ * الرَّبُّ الْقَدِيرُ مَارِيحُ الصَّبَا * مَالَتْ بِالْغُصُونِ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



تشرح أبيات القصيدة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلْزَمَ بَابَ رَبِّكَ * وَاتْرَكَ كُلَّ دُونِ * وَاسْأَلْهُ السَّلَامَةَ * مِنْ دَارِ الْفُتُونِ
لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ * فَالْحَادِثُ يَهُونُ * اللَّهُ الْمَقْدَرُ * وَالْعَالَمُ شُؤُونُ
لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



الحمد لله على ما طوى في أقوال أهل قربه من معانٍ؛ يسر الوصول إليها
على كل مُتَدَبِّرٍ لَهَا وَمُتَأَمِّلٍ لِمَا حَوَّتْهُ فِي سَطُورِهَا وَمَا انطوى فِيهَا.
نَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْعَالِمُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَا
ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا وَنُورَ قُلُوبِنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ
وَرَسُولَهُ وَحَبِيبَهُ الْمُؤْتَمَنُ.

اللهم أَدِّمْ صَلَوَاتِكَ عَلَى الْمُجْتَبَى الْمُصْطَفَى جَدِّ الْحُسَيْنِ وَالْحَسَنِ، مَنْ
جَمَعْتَ لَهُ الْحُسْنَى فِي كُلِّ فَنٍّ، وَجَعَلْتَهُ الْمُقَدَّمَ عَلَى كُلِّ مُحْبُوبٍ لَكَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ،
وَصَلِّ مَعَهُ عَلَى آلِهِ الْمُطَهَّرِينَ عَنِ الدَّرَنِ، وَأَصْحَابِهِ السَّائِرِينَ عَلَى أَقْوَمِ سَنَنِ، وَعَلَى
مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى مَدَى الزَّمَنِ، وَعَلَى آبَائِهِ وَإِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
الْمُرْتَقِينَ أَعْلَى الْقُنَنِ، وَعَلَى آلِهِمْ وَصَحْبِهِمْ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ
الَّذِينَ سَلَّمَتْ قُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ زَيْغٍ وَضَعَنَ، وَعَلَيْنَا مَعَهُمْ وَفِيهِمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ

الراحمين .. وَبَعْدُ

ففي هذه الأبيات دَعْوَةٌ إِلَى مَعَانِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

يقول الإمامُ الحَدَّادُ في بداية القصيدة :

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : أَيِ الزَّمِ الْوُقُوفَ عَلَى بَابِ اللَّهِ؛ بِالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ،

وَالِاسْتِنَادِ إِلَيْهِ، وَالثِّقَةِ بِهِ، وَإِنْزَالِ حَاجَاتِكَ بِهِ، وَرَجَائِكَ فِيهِ .

قَفْ عَلَى بَابٍ مَا يَقْلِدُهُ^(١) يَا سَعْدُ قَالِدٌ

بَابَ مَوْلَاكَ لِي^(٢) مِنْهُ وَرُودُ الْفَوَائِدِ

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : بِطَاعَتِهِ الَّتِي أَسَاسُهَا وَرَأْسُهَا تَرْكُ الْمَحْرَمَاتِ

وَالشُّبُهَاتِ ثُمَّ تَرْكُ الْمَكْرُوهَاتِ .

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : شُهُودًا لِعَظَمَتِهِ، وَخُضُوعًا لَجَلَالِهِ، وَتَعَرُّضًا لِنَوَالِهِ.

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : مُعْتَرِفًا بِمَا كَانَ مِنْكَ، وَرَاجِيًا مَا يَكُونُ مِنْهُ، وَخَائِفًا مِنْ

غَضَبِهِ، وَذَاكِرًا لَهُ بِالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِكْبَارِ وَالْمَحَبَّةِ.

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : بِمُؤَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ .

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : فِي وُجْهِتِكَ إِلَى الْحَقِّ؛ وَيَقِينِكَ أَنَّكَ عَبْدُهُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ

بِيَدِهِ، وَأَنَّ مَرَجِعَكَ وَمَرَجِعَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ.

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) : فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلِلِقَائِهِ.

(١) يقلده : أي يقفله .

(٢) لي : الذي .

(الزَّمْ بَابَ رَبِّكَ) بِالْعَمَلِ بِآدَابِ نَبِيِّهِ.

هذا معنى لزوم الباب؛ أن تترك ما نهاك عنه، وتحسن فعل ما أمرك به، وتعمل على استدامة حضور قلبك معه؛ وتستشعر عظمته، وأنه يراك ومطلع عليك، وأنت بين يديه وراجع إليه .

فدأوم استشعار ذلك بالقلب مُلازمًا للباب.

ولكن كل ما ذكرنا من ترك الذنوب والمعاصي والمكروهات والشبهات، ومن فعل الواجبات والمندوبات والمسنونات، ومن الاستقامة وحضور القلب والذكر؛ لا يتم إلا بالانتماء بخير الأنام، فهو الباب والقُدوة، ومن لازم باب ربه لازم حسن الصلة بحبيبه، كما قال الإمام الحداد في قصيدته الأخرى مخاطباً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

أنت باب الله نال المرتجى والأمان من عليه وقفاً

أنت حبل الله من أمسكه فاز بالخير والعهد وفاً

قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

ونعم الرفيق هؤلاء، وإذا لك رفيق من هؤلاء نلت الشفاعة يوم القيامة.

أما الكفار والفجار والأشرار والفساق والمنافقون فيس الرفيق، كما قال

تعالى: ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٦] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ

السَّيْلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]

فما أَذَلَّهُ وَمَا أَتَفَّهُهُ مِنْ قَرِينٍ .

فما بَالُ المسلمين اليومَ يتسابقُونَ إلى بِئْسَ القَرِينِ، وَيَنْقَطِعُونَ عَن نِّعَمِ الْقَرِينِ؟

ما هَذَا الإِهْمَالُ وَالتَّبَلُّدُ فِي الْحِسِّ؟

اللهم أَيَقِظْ قُلُوبَ المسلمين .

وَإِنَّ وُقُوفَ مَخْلُوقِينَ عَلَى أَبْوَابِ مَخْلُوقِينَ أَمْرٌ مَّشِينٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْقَطِعَ وَيَتَلَاشَى وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ .

لَكِنَّ شَرَفَ الْوُقُوفِ عَلَى بَابِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ شَرَفٌ بِهِ يَحُورُ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مَنْ قَامَ بِحَقِّ ذَلِكَ الْوُقُوفِ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا بِوَادِي الْفَضْلِ، عَاكِفًا فِيهِ، يَنْهَلُ عَلَيْهِ جُودُ اللَّهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحِينٍ.

وَإِنْ كَانَ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنْكُمْ مَطْلَبٌ دِينِيٌّ أَوْ دُنْيَوِيٌّ أَوْ بَرَزَخِيٌّ أَوْ أُخْرَوِيٌّ فَلْيُنْزِلْهُ بِبَابِ رَبِّهِ، وَلْيَسْأَلْهُ مِنْهُ، وَلْيَتَوَجَّهْ إِلَى اللَّهِ فِي تَحْصِيلِهِ.

وَإِنْ كَانَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ مَرْهُوبٌ مِنْ أَيِّ ضَرَرٍ يَخَافُهُ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْبَرَزَخِ وَالْآخِرَةِ فَلْيُنْزِلْهُ بِبَابِ اللَّهِ، وَلْيَسْتَعِذْ مِنْهُ، وَيَسْتَكْفِهِ شَرَّهُ، فَإِنَّهُ الْبَرُّ اللَّطِيفُ الْكَافِي .

قال الإمام الحدّاد :

وَاسْتَكْفِ رَبَّكَ كُلَّ هَمٍّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْبَرُّ اللَّطِيفُ الْكَافِي
وَاسْأَلْهُ أَنْ يُلبِسَكَ ثَوْبَ إِنَابَةٍ وَسَلَامَةٍ وَهَدَايَةٍ وَعَوَافِي
فَنَحْنُ وَالْخَلَائِقُ مُضْطَرُّونَ إِلَى حُسْنِ لُزُومِ بَابِ الْخَالِقِ؛ وَلَكِنْ مَا أَغْرَبَ
أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْحَاجَةِ وَالْاضْطِرَارِ جَاهِلًا لِحَاجَتِهِ وَاضْطِرَارِهِ.
فَمَا أَحَوْجُنَا إِلَى أَنْ نَتَعَلَّمَ لُزُومَ بَابِ الرَّحْمَنِ؛ فَإِنَّ الْأَكَابِرَ لَمْ يَبْرَحُوا مُلَازِمِينَ
بَابَ مَوْلَاهُمْ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْحَدَّادُ :

لَمْ أَزَلْ بِالْبَابِ وَاقِفٌ فَارْحَمْنِي رَبِّي وَوَقُوفِي
وَبَوَادِي الْفَضْلِ عَاكِفٌ فَأَدِمْ رَبِّي عُكُوفِي
وَلِحُسْنِ الظَّنِّ الْأَزِمِ فَهُوَ خَلِّي وَحَلِيفِي
وَأَنِيسِي وَجَلِيسِي طُولَ لَيْلِي وَنَهَارِي
وهَذَا سَيْرٌ حَمِيدٌ، وَمَسَلَكٌ رَشِيدٌ، وَطَرِيقٌ سَدِيدٌ .

وَمَنْ وَقَفَ عَلَى الْبَابِ بِالْأَدَبِ رُحِمَ وَفُتِحَ لَهُ الْبَابُ، وَلَا يَعْكُفُ عَلَى ذَلِكَ
الْبَابِ، وَيُلَازِمُ الْعُكُوفَ عَلَيْهِ بِحُسْنِ الْآدَابِ، إِلَّا خَاصَّةُ الْخَلْقِ مِنْ أُولَى الْأَبَابِ.
وَأَنَّ أَعْلَى فُرْصَةٍ تَجِدُهَا فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَتَزَوَّدَ فِيهَا لِحُسْنِ لِقَائِهِ، فَتَلْقَاهُ وَهُوَ
رَاضٍ عَنْكَ، فَمِلْكُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا لَا يُسَاوِي فِي الدَّرَجَةِ وَالرَّفْعَةِ وَالْمَكَانَةِ وَالسَّعَادَةِ
وإِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ وَاللَّذَّةِ عَلَى الدَّوَامِ ذَرَّةٌ مِمَّا يَجِدُهُ مَنْ كَسَبَ لِحِظَةٍ فِي الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَجَمْعُ الْمَالِ مَعَ تَضْيِيعِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَكَذَلِكَ الْإِيوَاءُ إِلَى

الشَّهَوَاتِ وَالاعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ لَا يُغْنِي أَصْحَابَهُ شَيْئًا، وَلَا يَنْفَعُهُمْ أَبَدًا، كَمَا أَخْبَرَ
تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمَشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا
كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَا لِكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]

فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ؛ فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ؛ ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ الصَّدْقِ فِي لُزُومِ الْبَابِ، فَاقْطَعْ الْأَسْبَابَ.
(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونِ): أَيِ ارْزُقْ كُلَّ قَاطِعٍ يَقْطَعُكَ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ،
وَتَخْلَصَ مِنْهُ، فَلَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ لَكَ وَلَا سَعَادَةٌ وَلَا رِفْعَةٌ، بَلْ فِيهِ ضُرٌّ.
(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونِ): اِتْرُكْ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْغَفْلَةِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ،
وَإِتْرُكْ اسْتِمَاعَ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْإِبْطَالِ وَالْأَضَالِيلِ، وَكُنْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضًا تَكُنْ
لِلْفَضْلِ مُتَعَرِّضًا.

(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونِ): فَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا تَتَّقِ بِسِوَاهُ، وَلَا تَسْتَنْدِ إِلَى مَنْ
عَدَاهُ، وَلَا تَرْجُ غَيْرَهُ، وَلَا تَخَفْ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا تَرَكُنْ إِلَى الْمُزِيْفِ، وَلَا تَتَمَسَّكَ
بِالزَّائِلِ الْفَانِي الْمُنْقَطِعِ.

(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونِ): اِتْرُكْ كُلَّ تَصَوُّرٍ يُصَوِّرُ لَكَ الْكَوْنَ عَلَى غَيْرِ مَا عَلَّمَكَ
خَالِقُ الْكَوْنِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَلَا أَعْلَمَ بِهَذَا الْكَوْنِ مِنْ مُكُونِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا يجوز أن تَسْتَعْبِدَنَا الاتِّجَاهَاتُ الَّتِي يَرَعَاهَا إِبْلِيسُ وَجُنْدُهُ عَلَى ظَهْرِ
الْأَرْضِ، فَيُوحُونَ إِلَيْنَا تَحْسِينَ مَا لَيْسَ بِحَسَنِ عِنْدَ رَبِّنَا، أَوْ تَقْبِيحَ مَا هُوَ حَسَنٌ عِنْدَ
رَبِّنَا فَتَتَّبِعَهُمْ.

عَارَ عَلَيْنَا وَحَرَامٌ وَخُسْرَانٌ أَنْ نُسْتَعْبَدَ لِغَيْرِ اللَّهِ فِي فِكْرٍ، أَوْ تَصَوُّرٍ، أَوْ نَظَرٍ
إِلَى شَيْءٍ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاتَيْنِ وَالْأَكْوَانِ كُلِّهَا.

(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونٍ) : حَتَّى تَسْلَمَ مِنَ الْهُونِ، فَإِنَّ قَوْمًا اغْتَرَّوْا بِشَيْءٍ مِنَ
أَمْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَرَفُّهُمَ فِي الْحَيَاةِ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿أَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا
كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

(وَاتْرُكْ كُلَّ دُونٍ) : اِتْرُكْ كُلَّ مَا دُونَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِمَّا لَا يُقَرِّبُكَ إِلَيْهِ وَلَا
يَصِحُّ أَنْ تَقْصُدَ بِهِ وَجْهَهُ.

اتْرُكْ كُلَّ قَوْلٍ لَا يَصِحُّ أَنْ تَقْصُدَ بِهِ وَجْهَهُ، وَكُلَّ نَظَرٍ لَا يَصِحُّ أَنْ تَقْصُدَ
بِهِ وَجْهَهُ، وَكُلَّ سَمَاعٍ لَا يَصِحُّ أَنْ تَقْصُدَ بِهِ وَجْهَهُ.

وَبِهَذَا الْعَزْمُ وَالْجَزْمُ لَا تَرَكْنُ إِلَّا إِلَى فَضْلِهِ عَلَيْكَ، وَالتَّجَانُّكَ إِلَيْهِ، لَا إِلَى
نَفْسِكَ وَلَا حَوْلِكَ وَلَا قُوَّتِكَ، وَ...

(اسْأَلْهُ السَّلَامَةَ مِنْ دَارِ الْفُتُونِ) : اسْأَلْ رَبَّكَ الْحِفْظَ مِنْ دَارِ الْفُتُونِ؛ وَهِيَ
الدُّنْيَا؛ دَارُ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ، لِتَسْلَمَ مِنْ شُرُورِهَا وَمُلْهِيَاتِهَا وَزَخَارِفِهَا وَكَذِبِهَا
وِخْدَاعِهَا وَفِتْنَتِهَا.

وقد جاء في الأثر أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى الدُّنْيَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَقَالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتَ؟ قَالَتْ: لَا أَحْصِيهِمْ، قَالَ: فَكُلُّهُمْ مَاتَ عَنْكَ أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكَ؟ قَالَتْ: بَلْ كُلُّهُمْ قَتَلْتُ، فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بُؤْسًا لِأَزْوَاجِكَ الْبَاقِينَ، كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكَ الْمَاضِينَ؟ كَيْفَ تُهْلِكِيهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا وَلَا يَكُونُونَ مِنْكَ عَلَى حَذِرٍ؟^(١)

(وَأَسْأَلُهُ السَّلَامَةَ مِنْ دَارِ الْفُتُونِ) : فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتِنُ الْخَلَائِقَ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَيُخْتَبِرُهُمْ بِالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَبِالرَّخَاءِ وَالشَّدَةِ، وَبِالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، فَكِلَا الْحَالَيْنِ اخْتِبَارٌ؛ وَالَّذِينَ يَنْجَحُونَ فِي هَذِهِ الْاِخْتِبَارَاتِ هُمُ الْأَقْلُونَ الْأَكْرَمُونَ، الْأَقْلُونَ الْأَعْظَمُونَ، الْأَقْلُونَ الْأَسْعَدُونَ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]
وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوِاسْتِقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا سَقِيَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [١٦] لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ [الجن:

[١٦-١٧]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَرَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]
وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيَّةً﴾
وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾: أَي إِذَا ابْتَلَاهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَظَاهِرِ الرِّزْقِ وَالتَّيْسِيرِ الْحَسِيِّ اغْتَرَّ وَافْتَحَرَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد عن ليث (١/ ٣٢/ ٢٧) الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٠

وَاجْتَرَأَ وَتَكَبَّرَ وَنَسِيَ.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي : إذا ضَيَّقَ عليه في مَالِهِ أو احتياجه المادية فيقول ربي أهانني، لكن قال الله : إننا لا نُكْرِمُ بِمُؤَاتَاةِ الْأَسْبَابِ وإعطاء الأموال، ولا نُهِنُ بِقَلَّةِ الْمَالِ وَالْفَقْرِ، لكن تَقُومُ الْإِهَانَةُ وَالْكَرَامَةُ بِعَمَلِكُمْ بما تَرْضَى أو بما تَسْخَطُ.

ولذا قالوا: ما أعزَّتِ الْعِبَادُ أَنْفُسَهَا بِمِثْلِ طَاعَةِ اللَّهِ، ولا أذَلَّتْ أَنْفُسَهَا بِمِثْلِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

قال الله : ﴿كَأَلَبَلٍ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وَلَا تَخْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿[الفجر: ١٧]

— ١٨ —

فِإِكْرَامُ الْيَتِيمِ وَإِطْعَامُ الْمَسْكِينِ هِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي فِيهَا الْكَرَامَةُ، فَمَنْ وَفَّقْنَاهُ لِأَنْ يُعْطِيَ مِنْ أَجْلِنَا، وَيُسَخَّرَ مُلْكُهُ لِمَرْضَاتِنَا فَهُوَ الْمُكْرَمُ، وَأما الَّذِي تَعَلَّقَ وَتَوَلَّعَ بغيرنا فهو الْمُهَانُ.

وإيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ إِهَانَةً مِنْ أَنْ يَصْرِفَكَ عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ إِلَى تَفَاهَاتٍ وَسَفَاهَاتٍ وَسَقَطَاتٍ وَأُمُورٍ زَائِلَاتٍ .

وفي هذه الابتلاء قال سيِّدنا سُلَيْمَانُ عِنْدَمَا سَأَلَ مَنْ عِنْدَهُ ؛ مَنْ مِنْهُمْ يَقْدِرُ عَلَى إِحْضَارِ عَرْشِ بَلْقَيْسَ مِنَ الْيَمَنِ : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا إِنِّيكَ بِهِ فَبَلَّ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]

اسْتَعَدَّ الْعِفْرِيتُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْعَرْشِ قَبْلَ زَوَالِ الشَّمْسِ، لكن الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ آصِفُ بْنُ بَرْخِيَا مِنْ عُلَمَاءِ وَأَوْلِيَاءِ أُمَّةِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ قَالَ لَهُ : ﴿أَنَا

ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٤٠]

فَعَدَّ سَيِّدُنَا سَلِيحَانُ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ.

هَؤُلَاءِ النَّاجِحُونَ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ إِنْ كَانُوا فِي الرَّخَاءِ وَإِنْ كَانُوا فِي الشَّدَةِ.

وقد ابتلي سيِّدنا يوسف في غِيَابَةِ الْحُبِّ فَنَجَحَ، ثم ابتلي بالرقِّ والعُبودِيَّةِ فَنَجَحَ، ثم ابتلي بالسَّجْنِ فَنَجَحَ، ثم ابتلي بِالْمُلْكِ فَنَجَحَ، حتى إِنَّهُ فِي أَيَّامِ مُلْكِهِ كَانَ يُكْثِرُ الصَّيَّامَ، وَكَانَ كَثِيرَ الْجُوعِ: وَقَدْ قِيلَ لَهُ: لِمَ تَجُوعُ وَأَنْتَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسِيَ الْجَائِعَ^(١).

فاسأل ربَّكَ السَّلَامَةَ مِنْ دَارِ الْفِتُونِ، فَإِنَّهُ لَوْ سَلَّطَ عَلَيْكَ أَمْرًا يَسِيرًا حَقِيرًا رُبَّمَا ضَاعَ إِيْمَانُكَ، أَوْ ضَاعَتْ رَابِطَتُكَ بِالْحَقِّ وَرَسُولِهِ، أَوْ ضَاعَتْ آخِرَتُكَ. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يقول: اللَّهُمَّ لَا تُبْلِنَا فَإِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا.

وقد أمرنا في التَّشَهُّدِ أَنْ نَتَعَوَّذَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ.

وَفِتْنَةُ الْمَحْيَا: مَا يُعْرَضُ لَكَ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِخْتِبَارَاتِ وَالْإِبْتِلَاءَاتِ، وَفِتْنَةُ الْمَمَاتِ: مَا يُعْرَضُ عِنْدَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْغَرَاغِرَةِ.

(١) ذكره أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي في كتابه: المجالسة وجواهر العلم عن وهب بن مُنْبَهٍ

(٢/٤٦/١٩٢) الناشر: دار ابن حزم (بيروت - لبنان) ١٤١٩ هـ

اللهم لا تُعَرِّضْنَا لِمُحَنَةٍ وَلَا لِفِتْنَةٍ وَلَا لِبَلِيَّةٍ يَقْلُ عِنْدَهَا صَبْرُنَا وَرِضَانَا وَثَبَّتْنَا عَلَى مَا نُحِبُّهُ مِنَّا، اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ شُرُورِ الدُّنْيَا وَأَفَاتِهَا وَفِتْنِهَا وَزَخَارِفِهَا وَكَذِبِهَا وَخِدَاعِهَا، وَارْزُقْنَا خَيْرَهَا وَبَرَكَتَهَا وَهَيِّئْنَا لِلْقَائِلِ.

اللهم سَلِّمْنَا مِنْ جَمِيعِ الْمَصَائِبِ وَالْآفَاتِ وَالْعَاقَاتِ وَالْقَوَاطِعِ وَالْحُجُبِ عَنْكَ وَخَلِّصْنَا مِنْهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَإِذَا انْطَلَقْتَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَانْطَلِقْ انْطِلَاقَ الْمُؤْمِنِ الْمُوقِنِ وَلَا تَهْتَزْ أَوْ تَتَزَعَزَعْ لِلْحَوَادِثِ الَّتِي تَحْصُلُ .

ف (لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ) : لِأَنَّ صَدْرَكَ يَسَعُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ مَا لَا تَسَعُهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَكَيْفَ يَضِيقُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ ؟

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿ [الحجر: ٩٧ - ٩٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥]

(لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ) : فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِالْقَوِيِّ، مُؤْمِنٌ بِالْغَنِيِّ، مُؤْمِنٌ بِالسَّخِيِّ، مُؤْمِنٌ بِالْقَدِيرِ، مُؤْمِنٌ بِالْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، مُؤْمِنٌ بِالْفَعَالِ لِمَا يُرِيدُ، فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ .

(فَالْحَادِثُ يَهُونُ) : لِأَنَّ كُلَّ الْحَوَادِثِ وَالشَّدَائِدِ وَالنَّوَازِلِ مُوقَّتَةٌ بِمَوَاقِيتِ، وَمُحَدَّدَةٌ بِحُدُودٍ؛ مِنْ قَبْلِ قَوِيٍّ قَدِيرٍ حَكِيمٍ عَظِيمٍ قَاهِرٍ، وَمَا تَلَبَّثُ هَذِهِ الْحَوَادِثُ

أَنْ تَهُونَ وَتَتَلَاشَى وَتَضْمَحِلَّ .

فَكُنْ ثَابِتًا، رَاجِيًا، وَاثِقًا، مُتَوَكِّلًا، مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ، مُسْتَنَدًا إِلَيْهِ، حَسَنَ الظَّنِّ

بِهِ .

ثِقْ بِمَوْلَاكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَاحْسِبِ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي الْقُبُورِ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾

[الفرقان: ٥٨]

قال النَّاطِظُ في قصيدةٍ أخرى :

وَإِذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمَتْ وَتَنَكَّرَتْ فَاسْكُنْ وَإِيَّاكَ التَّحَرُّكَ وَالْحَذَرَ

إِنَّ النَّوَائِبَ كَالسَّحَابِ تَنْجَلِي فِي سُرْعَةٍ وَوُجُودَهَا يُضْحِي خَبَرَ

وَإِذَا تَطَوَّلَ إِقَامَةٌ مِنْ حَادِثٍ كَانَتْ مُبَشِّرَةً بِطُولِ الْمُتَنَظَّرِ

فَاصْبِرْ عَلَى الْمِحَنِ الْقَوَاصِدِ وَانْتَظِرْ فَرَجًا تَدُولُ بِهِ دُورِ الْقَدَرِ

معركة الأحزاب وثبات المؤمنين فيها :

وإنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا وَقَعَ فِي حَيَاةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْحَوَادِثِ حَادِثَةُ الْأَحْزَابِ،
 حَيْثُ تَجَمَّعَتْ جُمُوعٌ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ هِيَ مِنْ حَيْثِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَسْبَابِ
 الظَّاهِرَةُ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَسْتَأْصِلَ شَوْكَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، إِذْ تَجَمَّعَ
 عَشْرَةُ آلَافٍ مُقَاتِلٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، بَيْنَمَا كَانَ عَدَدُ مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
 وَالْأَنْصَارِ لَا يُجَاوِزُ الثَّلَاثَةَ آلَافٍ، لَكِنْ مَا ضَاقَ صَدْرُ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا ضَاقَتْ
 صُدُورُ أَصْحَابِهِ الصَّادِقِينَ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِهِ، لَكِنْ ضَاقَتْ قُلُوبُ الْمُنَافِقِينَ،

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١ ﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَّحُوا الْقَفْنَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَهِيمًا ١٤ ﴾ [الأحزاب: ١١ - ١٤]

هذا حال المنافقين عند الحوادث، لا يعرفون عهدًا ولا ميثاقًا، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ إِلَّا دُبُرًا ١٥ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ١٦ ﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٧ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنِ ارَّادَ بِكُمْ سَوْءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٨ ﴾ [الأحزاب: ١٥ - ١٨]

وهكذا في مختلف حوادث العالم، أنما تصيق قلوب أهل النفاق وأهل ضعف الإيمان .

أما من صحَّ ارتباطهم بالأسمى فهم تحت دائرة : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وقد جرت معركة الأحزاب في وقت بردٍ حتى كان بعض الصحابة لا يجدون ما يغطيون به من البرد إلا مروط^(١) نسائهم، وكانوا على قلة أيضًا في الطعام حتى ظهر أثر الجوع على وجه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولكنهم كانوا ثابتين .

جاء في الحديث أن سيدنا جابرًا لما رأى أثر الجوع على وجه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذهب إلى بيته وسأل زوجته : هل عندك شيء حتى ندعو

(١) كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتلفع به المرأة

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: لَيْسَ عِنْدَنَا إِلَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا اطْحِينِي، قَالَ: وَذَبَحْتُ عَنَّا كَانَتْ عِنْدَنَا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عِنْدَنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ وَعِنْدَنَا عَنَاقٌ أَوْ شَاةٌ ذَبَحْنَاهَا، وَإِنِّي صَنَعْتُ لَكَ وَلِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِكَ طَعَامًا، فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَقَدْ صَنَعَ جَابِرٌ سُورًا" ثُمَّ قَالَ: يَا جَابِرُ لَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ، وَلَا تَطْبُخَنَّ قِدْرَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ فَأَتَيْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ لَا تَفْضَحْنِي الْيَوْمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "ضَعُوا بُرْمَتَكُمْ" قَالَ: فَوَضَعُوا فِيهَا اللَّحْمَ، فَبَسَقَ^(١) فِيهَا وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: انْظُرُوا خَابِزَةَ تَخْبِزُ لَكُمْ قَالَ: فَجَعَلَتِ الْخَابِزَةُ تَخْبِزُ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "ادْخُلُوا عَشْرَةَ عَشْرَةَ" قَالَ: فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُمْ فَيَأْكُلُونَ حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ وَإِنَّا لَنَقْدَحُ^(٢) فِي بُرْمَتِنَا^(٣) وَإِنْ عَجِينَنَا لِيُخْبِزُ كَمَا هُوَ، وَإِنْ قِدْرَنَا لَتَغَطُّ^(٤) كَمَا هِيَ^(٥).

(لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ فَالْحَادِثُ يَهُونُ): لِأَنَّ شُؤُونَ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مُتَقَلِّبَةٌ وَمُتَغَيِّرَةٌ، وَالتَّائِيحُ حَسَنَةٌ لِكُلِّ صَادِقٍ مَعَ اللَّهِ، مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَتَلَطَّخَ بِالذِّمِّ الْحَرَامِ

(١) بَسَقَ: بَصَقَ.

(٢) نَقْدَحُ: نَطْبِخُ.

(٣) الْبُرْمَةُ: قِدْرٌ عَمِيقٌ مِنَ الْحِجَارَةِ أَوْ النُّحَاسِ.

(٤) تَغَطُّ أَي: لِعَلَّيْنَاهَا صَوْتُ.

(٥) أَخْرَجَهُ الْبِيهَقِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، بَابُ مَا يَسْتَحِبُّ مِنْ إِجَابَةِ مَنْ دَعَاهُ إِلَى طَعَامٍ

(٧/٤٤٧/١٤٥٩٧) النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

ولا بالذم لأحد من أهل الإسلام، فهو في خيرٍ وحِرْزٍ وفَضْلٍ تامٍّ، فإنَّ حَمَلَ سَيْفِهِ
لإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ خَالِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ - عندما تقومُ القَائِمَةُ ويتَسَنَّى له ذلك - على
وَجْهِهِ فهو في حالٍ أتمَّ وشأنٍ أَقْوَمَ، وسيَمُوتُ الكُلُّ، وسيَرْبِحُ وينجَحُ مَنْ صَدَقَ
مع ربِّ الكُلِّ وإِلَه الكُلِّ وَمَنْ إِلِيهِ مَرَجِعُ الكُلِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأَحْسِنُوا اللَّجَاءَ إِلَى رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، والقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

أَيُّهَا الْأَحْبَابُ وَالْإِخْوَانُ وَالْأَصْحَابُ وَالْوُعَاةُ وَالْفَاهِمُونَ لِلْأَقْوَالِ : إِنَّ
مَنْ مَعَهُ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْعَظِيمَةُ مَا حَقُّهُ أَنْ يَقْلُقَ مِنْ شَيْءٍ، فَمَنْ وَجَدَ اللَّهَ فَأَيُّ شَيْءٍ
فَاتَهُ، وَمَنْ فَاتَهُ اللَّهُ فَأَيُّ شَيْءٍ وَجَدَ.

وقد فَتَحَ لَنَا الْبَابَ لِتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَنَعْتَمَدَ عَلَيْهِ، وَنَسْتَعِذَّ إِلَيْهِ، وَنُصَدِّقَ مَعَهُ
فِي رَيْنَا الْعَجَائِبِ مِنْ فَضْلِهِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٣]

و قَالَ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُتَوَكِّلِينَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ
ذِي أَنْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٨
فإذا كَانَ اللَّهُ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَبِأَيِّ شَيْءٍ تُخَوِّفُونَا بَعْدَهُ؟

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ
أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[الزمر: ٣٨]

قل لهم يا محمد: حسبي الله، فقد اكتفيت بالكافي الوافي، واكتفيت بعالم الظاهر والخافي، واكتفيت بالقوي الذي لا يعجزه شيء ﴿قُلْ يَتَّقُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣٩ من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴿الزمر: ٣٨ - ٤٠﴾

فماذا بعد ذلك: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿الزمر: ٣٨ - ٤١﴾ فليست المسألة أفكار أو ألعيب بشر أو جماعات أو أحزاب أو طوائف أو دُول، بل وحي من الرب جل جلاله.

فيجب من خلال وجهتكم إلى الله إظهار سنن من نور عظمة هذا الإله بأن تصدقوا معه، وتكلموا عليه، وتعتمدوا عليه، فتسع صدوركم، ولا يضيق بكم صدر من أي حادث، فعند الله الفرج والمخرج.

ولما حاول كفار قريش تخويف المسلمين، كانوا يقولون لمن لقيهم من المسلمين: إن قريشاً قد جمعوا لكم، فكان جواب الصحابة: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

والنتيجة: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ رُكَّاعًا تَدْعُونَ اللَّهَ وَتَقُولُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ وَإِنَّا نَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبَّنَا ۚ وَإِذْ أَنْتَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٥﴾

هكذا قابلوا الحوادث فلم تؤثر فيهم المجرىات التي تؤثر في نفوس الناس، لأن نفوسهم تزكت على يد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي كلِّ زمانٍ يَتَخَبُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ، فتكونُ حوادثُ العالمِ سَبَباً لزيادةِ إيمانه وقُربِهِ، ثم ينقلبُ بفضلٍ من الله ونعمةٍ لا يَمَسُّهُ سُوءٌ ويتَّبِعُ رِضوانَ الله فينالهُ الرِّضوانَ من الله .

وهلُّ هناك شيءٌ أعظمُ من رِضوانه؟

لا وعِزَّتِهِ وجلالِهِ لا شيءٌ أعظمُ من رضوانِهِ، ولا أحسنَ من رضوانِهِ، ولا ألدَّ ولا أطيبَ ولا أنعمَ ولا أجملَ ولا أكملَ ولا أتمَّ ولا أقومَ ولا أحسنَ ولا أزينَ من رضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى "أنَّهُ يُخَاطِبُ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ويقولُ لهم : يا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ! فيقولُ: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: ما لنا لا نَرْضَى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا من خَلْقِكَ؟ فيقول: أَلَا أعطيتكم أَفْضَلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رَبِّ، وأيُّ شيءٍ أَفْضَلُ من ذلك! فيقول: أَجَلُّ عليكم رِضواني، فلا أَسْخَطُ عليكم بعدَهُ أَبَدًا^(١) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

التوبة: ٧٢

اللهم إنا نسألك رِضَاكَ والجنةَ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ والنَّارِ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، باب كلامُ الرَّبِّ مع أهل الجنة (٧٥١٨/١٥١/٩) الناشر:

دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

إِذَنْ لَا يَضِيقُ صَدْرُنَا بِأَيِّ حَادِثٍ لَأَنَّ ..

(اللهُ الْمُقَدَّرُ وَالْعَالَمُ شُؤُونُ) : الْعَالَمُ بِمَا فِيهِ شُؤُونٌ : قَالَ تَعَالَى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] : أَي شُؤُونٌ يُبْدِيهَا وَلَا يَبْتَدِئُهَا، قَدْ سَبَقَتْ فِي عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ فَيَقْرُبُ هَذَا، وَيُبْعِدُ هَذَا، وَيُشْقِي هَذَا، وَيُسْعِدُ هَذَا، وَيُضِلُّ هَذَا، وَيَهْدِي هَذَا، وَيُعَذِّبُ هَذَا، وَيَرْحِمُ هَذَا، وَيُمْرِضُ هَذَا وَيُعَافِي هَذَا ، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]

ولذا لما جَاءَ بَعْضُ الْمَشْكُوكِينَ يُنَازِعُ بَعْضَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَصَعِدَ الْمَنْبَرُ يَسْأَلُ وَيَقُولُ : مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يُرِيدُ تَشْكِيكَ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ مِنَ الْعَامَّةِ، وَكَانَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ حَاضِرًا، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا .. أَنْتَ سَائِلٌ أَمْ حَجِيبٌ؟ فَقَالَ : بَلِ سَائِلٌ، فَقَالَ إِذَا كُنْتَ أَنْتَ السَّائِلُ فَاَنْزِلْ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِسَائِلٍ يَطْلُعُ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَتَزَلْ وَصَعَدَ هَذَا الصَّالِحُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: تَفْضَلُ اسْأَلْ، فَقَالَ هَذَا الرَّجُلُ : مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ؟ فَأَجَابَهُ : شُؤُونٌ يُبْدِيهَا وَلَا يَبْتَدِئُهَا، قَدْ رَتَّبَهَا فِي الْأَزَلِ، قَالَ : فَفِي أَيِّ شَأْنٍ هُوَ مِنْ شُؤُونِهِ الْآنَ ؟ قَالَ لَهُ: يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيُخَفِّضُ آخَرِينَ كَمَا رَفَعَنِي إِلَى هَذَا الْمَنْبَرِ وَأَنْزَلَكَ مِنْهُ، فَسَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ .

فَالْكُلُّ تَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ، وَمَا خُلِقَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ بِإِرَادَتِهِ حَتَّى يَتَصَرَّفَ فِي هَذَا الْكُونِ بِإِرَادَتِهِ.

مَنْ مِنَ الطَّغَاةِ الْبُغَاةِ الْمَجْرَمِينَ فِي الْأَرْضِ اخْتَارَ شَكْلَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ أُمَّهُ أَوْ

أباهُ أو اختارَ الأرضَ التي خُلِقَ فيها، أو الرِّمَنَ الذي وُلِدَ فيه؟

كُلُّهُمْ تَحْتَ قَهْرِهِ وَحُكْمِهِ لَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ وَيُكَابِرُونَ وَيُغَالِطُونَ أَنْفُسَهُمْ .

إِذَنْ فَلَا بُدَّ مِنَ اللّجْوَاءِ إِلَى الْمَقْدَرِ، وَالسُّكُونِ إِلَى أَمْرِهِ، وَالثَّقَّةِ بِهِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَلَا نَضِيقُ مِنَ الْحَوَادِثِ، وَنَعْلَمُ أَنَّهَا مُؤَقَّتَةٌ بِمَوَاقِيتَ، وَمَحْدَدَةٌ بِحُدُودٍ وَأَنَّ عَاقِبَةَ الصَّابِرِ الرَّاضِي الصَّادِقِ مَعَ اللَّهِ خَيْرًا .

(اللَّهُ الْمَقْدَرُ وَالْعَالَمُ شُؤُونُ) : وَالْعَالَمُ : هُوَ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَالْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنباتاتِ وَالْجَمَادَاتِ .

وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ فِعْلُهُ، إِذَنْ فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ وَأَفْعَالُهُ، قَالَ تَعَالَى

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]

الإنسان مخير أم مسير؟

وقد يأتي عند البعض تَسَاوُلٌ يَبْعَثُ الْوَسْوَاسَ فِيهِ فيقول : إذا كَانَتْ

الأشياءُ مَقْدَرَةً فَلِمَاذَا نُعَاقِبُ عَلَى الْمَعَاصِيِ وَالذُّنُوبِ ؟

نقول : نُعَاقِبُ عَلَى الْمَعَاصِيِ وَالذُّنُوبِ لِأَنَّ الْمَقْدَرَ فِي تَقْدِيرِهِ قَدَرٌ لَكَ

اخْتِيَارًا وَأَعْطَاكَ إِيَّاهُ، لِتَفْعَلَ هَذَا أَوْ لَا تَفْعَلَ، فالاختيارُ مُقَدَّرٌ، وَالْعِقَابُ مُقَدَّرٌ .

فَمَنْ اخْتَارَ الطَّاعَةَ أَثَابَهُ عَلَيْهَا، وَمَنْ اخْتَارَ الْمَعْصِيَةَ عَاقَبَهُ عَلَيْهَا، فَأَنْتَ

تَخْتَارُ بِتَقْدِيرِهِ، وَتُثَابُ أَوْ تُعَاقَبُ بِتَقْدِيرِهِ .

ولذا يُذَكِّرُ أَنَّ إبليسَ قال : رَبِّي قَدَّرْتُ عَلَيَّ الْإِبَاءَ عَنِ السُّجُودِ لِأَدَمَ فَلِمَ عَاقَبْتَنِي عَلَيْهِ؟

فقال له: متى عَلِمْتَ أَنِّي قَدَّرْتُ عَلَيْكَ ذَلِكَ، قبل أن تَأْبَى وَتَمْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ أَمْ بَعْدَ أَنْ أُبَيِّتَ وَامْتَنَعْتَ ؟
فقال : بَعْدَ إِنْ أُبَيِّتَ وَامْتَنَعْتُ .
قال : فِيهَا أَخَذْتُكَ .

أَعْطَيْتُكَ الْإِخْتِيَارَ لِأَنْ تَسْجُدَ أَوْ لَا تَسْجُدَ، فَاخْتَرْتَ عَدَمَ السُّجُودِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِي أَنَّكَ تَخْتَارُ ذَلِكَ فَطَرَدْتُكَ، لِأَنَّكَ مُحَاطَبٌ بِالْإِخْتِيَارِ الَّذِي أُعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ.

وَقَدْ سَأَلَ أَحَدُهُمْ سَيِّدَنَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَنِ التَّخْيِيرِ وَالتَّسْيِيرِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مَا هُوَ الْمُقَدَّرُ عَلَيْهِ وَمَا هُوَ الْمُخَيَّرُ فِيهِ ؟ وَكَانَ الرَّجُلُ قَائِمًا، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ : ارْفَعْ رِجْلَكَ .
فَرَفَعَ رِجْلَهُ، فَقَالَ لَهُ : ارْفَعْ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ : لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ : هَكَذَا التَّقْدِيرُ وَالتَّخْيِيرُ .

فَالْحَقُّ لَا يُوَاضِحُ إِلَّا عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَ لَنَا فِيهَا الْإِخْتِيَارَ، أَمَّا مَا لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ إِخْتِيَارٌ فِيهِ فَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْلَهَا﴾ [الطلاق: ٧]

وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ إِلَهُ، لَوْ أَرَادَ مِنْ دُونِ أَنْ يُعْطَى الْإِخْتِيَارَ أَنْ يُعَاقَبَ أَحَدًا أَوْ

يُعَذِّبُهُ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]

لكن أعطانا الاختيار وأعطانا الإنذار وهذا من فضله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

إذن .. ف (لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ) وأصل هذا البيت حديث جاء

بلفظ " لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ، مَا يَقْدَرُ يَكُنْ، وَمَا تُرْزَقُ يَأْتِكَ"^(١)

فنظّم سيّدنا الحدّاد هذا المعنى وجعله تخميساً لهذه القصيدة .

وفي اللغة إذا دَخَلَ اسْمُ الشَّرْطِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي جَازَ فِي الْجَوَابِ أَنْ يُجْزَمَ

أَوْ أَنْ يُرْفَعَ، وَقَدْ دَخَلَ اسْمُ الشَّرْطِ عَلَى فِعْلِ مَاضٍ (مَا قُدِّرَ) فَجَازَ فِي الْجَوَابِ أَنْ

يُجْزَمَ وَأَنْ يُرْفَعَ ؛ وَقَدْ رُفِعَ هُنَا فَقَالَ : (يَكُونُ)

فَهَلْ تَتَعَلَّمُ لُزُومَ الْبَابِ أَوْ لَا ؟ فَإِنَّ الْحَيَاةَ سَتَنْقُضِي بِكَ، وَلَنْ تَنْدَمَ عَلَى

شَيْءٍ فِيهَا مِثْلَ نَدَمِكَ عَلَى عَدَمِ لُزُومِ بَابِ الْإِلَهِ تَعَالَى فِي عِلَالِهِ .

فَأَحْسِنِ لُزُومَ الْبَابِ وَسَيَفْتَحُ الْبَوَابُ .

و كل ما يُقْلِقُكُم مما يُخْصُ الْفَرْدَ مِنْكُمْ أَوْ الْأُسْرَةَ أَوْ الْجَمَاعَةَ أَوْ الْعَالَمَ فَأَمَّا

مَا كَانَ مِنْهَا مُتَعَلِّقًا بِخَشْيَتِكُمْ مِنْ سُوءٍ وَصَفٍ، أَوْ فِعْلٍ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى،

فَقَلِّقْكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَخَوْفِكُمْ مِنْهُ وَحُزْنِكُمْ عَلَيْهِ هُوَ عَيْنُ الْعِلَاجِ لَهُ، وَهُوَ سَبِيلُ

التَّذَارُكِ وَالتَّلَافِي، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ يُعَيِّنَ مَنْ أَرَادَ رِضَاهُ، وَصَدَقَ فِي طَلَبِ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيثار، عن خالد بن رافع عن ابن مسعود، باب التوكل بالله والتسليم

(٢/٤٠٨/١١٤) الناشر: مكتبة الرشد .

قُرْبِهِ، فَيُكْشَفُ عَنْهُمْ الْغَمُّ وَالظُّلْمُ، فَكُونُوا جَمِيعًا عَلَى صِدْقِ التَّوْبَةِ وَحُسْنِ الْأُوبَةِ
وَالطَّلَبِ وَالرَّغْبَةِ وَاللَّجَاءِ وَالْفِرَارِ إِلَيْهِ تُكْفَوْنَ شَرَّهَا.

وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْمَشَاكِلِ وَالنَّوَازِلِ فَإِنَّهُ لَا يَدُومُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَكُمْ
فِي الْاِحْتِسَابِ وَالصَّبْرِ مِنَ الثَّوَابِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حِسَابٍ، وَلَكُمْ أَيْضًا مَرَاتِبُ
فِي الْاِقْتِرَابِ، وَسَيُصَادَفُ كُلُّ مِنْكُمْ غَالِبًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْوَفَاةِ فَرَجًا مِنْهَا،
وَرَفْعًا لَهَا، ثُمَّ يُلَاقِي نَتِيجَةً حَسَنَةً بَعْدَ مَوْتِهِ إِذَا مَا قَابَلَهَا بِمَا يُرْضِي اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
رَزَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ حُسْنَ الْوُقُوفِ عَلَى بَابِهِ وَاللِّيَازَ بِأَعْتَابِهِ، وَاتَّبَاعَ نَبِيِّهِ
بِالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ آمِينَ .

فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ * دَعُوهُمَا وَرَاكَ وَالتَّذْيِيرَ أَيْضًا * وَاشْهَدْ مَنْ بَرَاكَ
مَوْلَاكَ الْمُهَيِّمْنَ * إِنَّهُ يَرَاكَ فَوْضَ لَهُ أُمُورُكَ * وَاحْسِنْ فِي الظُّنُونِ
لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



(فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ دَعُوهُمَا وَرَاكَ) أي : أَنْزِلْهُمَا الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى
فِيهَا؛ فَاسْتَعْمِلْهُمَا وَاسْتَخْدِمْهُمَا بِمِيزَانِ رَبِّكَ، وَاجْعَلِ النُّورَ شَرَعَ رَبِّكَ، وَاللَّجُوءَ
إِلَى رَبِّكَ، وَالاعْتِمَادَ عَلَى رَبِّكَ، وَاسْتَعْمِلْهُمَا مُسَخَّرِينَ مَخْلُوقِينَ لَيْسَ لِهَمَا مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ.

فَفِي عَالَمِ الْحَسِّ أَنْتَ تَسْتَعْمِلُ عَيْنِكَ لَتَنْظُرَ إِلَى الْكَأْسِ وَفِيهِ الْمَاءُ، فَهَلْ
نَظَرُكَ إِلَى الْكَأْسِ وَفِيهِ الْمَاءُ يُوصِلُ الْكَأْسَ إِلَيْكَ؟
لا ..

كَذَلِكَ أَنْتَ تَسْتَعْمِلُ الْفِكْرَ، لَكِنْ لَا تَظُنُّ أَنَّ الْفِكْرَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْرِفَ كُلَّ
شَيْءٍ، أَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ لَكَ أَيَّ شَيْءٍ، هُوَ فَقَطْ آلَةٌ تَسْتَخْدِمُهَا كَمَا شَرَعَ خَالِقُهَا،
لَكِنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الْخَالِقِ وَالِاسْتِنَادَ إِلَيْهِ.

إِذَنْ فَحَقِّقِ الْعِبُودِيَّةَ لِلرَّبِّ، وَاسْتَعْمِلِ الْفِكْرَ كَمَا تَسْتَعْمِلُ الْبَصَرَ.
وَكَمَا تَرَى أَنَّ الْبَصَرَ آلَةٌ لِلنَّظَرِ لَيْسَ بِجَالِبٍ نَفْعًا وَلَا بِدَافِعٍ ضَرًّا، فَالْفِكْرُ
كَذَلِكَ آلَةٌ لِلِاسْتِبْصَارِ الْمَعْنَوِيِّ لَيْسَ بِجَالِبٍ نَفْعًا وَلَا بِدَافِعٍ ضَرًّا، وَلَا يَنْفَعُ وَلَا
يُضُرُّ وَلَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكلُّ شيءٍ في الوجود لا يَمْلِكُ نفعًا ولا ضَرًّا إلا بأمرِ الله جَلَّ جَلَالُهُ، فالماءُ مثلاً لا يستطيعُ أنْ يَخْلُقَ رَيًّا ولا عَطْشًا، وإنما يَخْلُقُ اللهُ الرَّيَّ عندَ تناوُلِهِ والعَطْشَ عندَ فَقْدَانِهِ .

ولما دَعَا سَيِّدُنَا الحُسَيْنُ بنَ عَلِيٍّ على المِستهزِئِ الشَّامِتِ الذي قَالَ لَهُ في يَوْمِ مَقْتَلِهِ : إِنَّ المَاءَ عِنْدَنَا ولا مَاءَ لَكُمْ حتَّى تَمُوتُوا ظَمًا، قَالَ : اللَّهُمَّ أَمْتُهُ عَطْشًا، فَعَطِشَ الرَّجُلُ أَبْلَغَ مَا يَكُونُ مِنَ العَطْشِ، حتَّى كَانَ يَقُولُ : اسْقُونِي مَاءً، فَيُوتَى بِمَاءٍ، فَيَشْرَبُ حتَّى يَخْرُجَ المَاءُ مِنْ فِيهِ، وهو يَقُولُ: اسْقُونِي، قَتَلَنِي العَطْشُ، فلم يَزَلْ كَذَلِكَ حتَّى مَاتَ^(١) .

والطَّعَامُ لا يَخْلُقُ شَبَعًا، وإنما يَخْلُقُ الجُوعَ والشَّبَعَ خَالِقُ الطَّعَامِ، وقد دَعَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ بأنْ يُذْهِبَ اللهُ عَنْهَا أَلَمَ الجُوعِ، فَصَارَتْ لَا تَشْعُرُ بِأَلَمِ الجُوعِ أَبَدًا^(٢) .

وَلَمَّا دَعَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ أَنْ يَقِيَهُ الحَرَّ والبَرْدَ

(١) انظر كتاب مقاتل الطالبين لـ علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني (١١٧/١) الناشر: دار المعرفة، بيروت .

(٢) جاء في المعجم الأوسط للطبراني (٤/ ٢١٠ / ٣٩٩٩) عن عمران بن حصين قال : إني لجالس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة، فقامت بحذاء النبي صلى الله عليه وسلم، مقابلة، فقال: «ادني يا فاطمة»، فدنت دنة، ثم قال: «ادني يا فاطمة»، فدنت دنة، ثم قال: «ادني يا فاطمة» فدنت حتى قامت بين يديه، قال عمران: فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها، وذهب الدم، فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، ثم وضع كفه بين تراقيها، فرفع رأسه، فقال: «اللَّهُمَّ مُشِيعَ الْجُوعِ، وَقَاضِيَ الْحَاجَةِ، وَرَافِعَ الْوَضْعَةِ، لَا تُجْعِ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» فرأيت صفرة الجوع قد ذهبت عن وجهها، وظهر الدم ثم سألتها بعد ذلك، فقالت: «ما جعت بعد ذلك يا عمران» كذلك عند أبي نعيم في دلائل النبوة .

صار لا يُفَرِّقُ بين صَيْفٍ ولا شتاءٍ في إحساسه به، فقد يُرى في أَيَّامِ شِدَّةِ الصَّيْفِ والحرِّ لا بساً ثيابَ الصُّوفِ الغليظة، وقد يُرى في بعضِ أَيَّامِ شِدَّةِ البردِ لا بساً ثياباً خفيفةً، ولما سأله بعضهم عن سببِ ذلك، قال : ما شَعُرْتُ بذلك من يومِ خيبرَ عندما دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقال : اللَّهُمَّ اكْفِهِ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، قال: فَمَا أَذَانِي بَعْدَ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ^(١).

إِذْنٌ فَهَذِهِ عَوَارِضُ أَبْدَاهَا اللَّهُ، لِيَفْتِنَنَّ بِهَا مَنْ يَفْتِنُنُّ، وليس الفَعَّالُ إِلَّا هُوَ، ولا الخَلَّاقُ إِلَّا هُوَ .

فيا عِبَادَ الْفِكْرِ تَحَرَّرُوا مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ .

لا تعبدوا عقلاً، لا تعبدوا فِكْراً، لا تعبدوا نظريَّاتٍ، لا تعبدوا خِطَاطاً : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٣-٦]

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة، (١/١٣٩/٢٤٤) الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى،

اللهم اجعلنا من المتقين .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨]
خُلِقُوا حَطَبًا لِلنَّارِ .

أما الفريق الآخر فيقول الله عنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأُخْرُ دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
[يونس: ٩-١٠] .

(فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ دَعْوُهُمَا وَرَاكَ) فاستعملها ولا يستعملاك، فإنَّ الله
سَخَّرَهُمَا لَكَ فَسَخَّرَهُمَا لِأَمْرِهِ، واجعل اختياركَ مَا شَرَعَ لَكَ، وفِكْرُكَ فِي كَيْفِيَّةِ
تَنْفِيذِ مَا شَرَعَ لَكَ؛ لِتَعْلَمَ عَظَمَتَهُ فَتَزِدَّادَ إِيمَانًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا .
فإنَّ قَال لَكَ : إنَّ هَذَا وَاجِبٌ وَهَذَا مَدْبُوبٌ، فاجعل فِكْرُكَ كَيْفَ مُحْسِنٌ
أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَتَوْدِي الْمَدْبُوبِ بِمَا تَسْتَطِيعُ .

وإنَّ قَال لَكَ : إنَّ هَذَا حَرَامٌ وَهَذَا مَكْرُوهٌ، فاجعل فِكْرُكَ كَيْفَ تَجْتَنِبُ هَذَا
الْمَحْرَمَ وَتَبْتَغِدُ عَنِ الْمَكْرُوهِ .

ثم جَعَلَ لَكَ مَسَاحَةً فِي الْمُبَاحَاتِ، فمهما نَوَيْتَ فِيهَا النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ وَأَخَذْتَ
بِأَدَابِ نَبِيِّهِ مِمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الْكُبْرَى أَثَابَكَ عَلَيْهَا .
هذا الاستعمالُ الصَّحِيحُ لِلْفِكْرِ كَمَا أَحَبَّهُ وَاهَبُ الْفِكْرِ الَّذِي أَعْطَاكَ إِيَّاهُ .

فَكَّرَ كَيْفَ تَكْتَسِبُ الْحَلَالَ، وَكَيْفَ تَجْتَنِبُ الْحَرَامَ؟ وَاعْتَمِدْ عَلَى اللَّهِ يُوفِّقَكَ
وَيُسَهِّلْ لَكَ، ثُمَّ فَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيمَا تَجَلَّبُ فِيهِ خَيْرًا وَنَفْعًا لِنَفْسِكَ أَوْ لغيرِكَ، أَوْ
تَدْفَعُ بِهِ شَرًّا عَنْ نَفْسِكَ أَوْ عَنْ غَيْرِكَ لَكِنْ بِبَصِيرَةٍ وَأَدَبٍ وَاتِّزَانٍ بِمِيزَانِ مَرْضَاةِ
الرَّبِّ، لِأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَمَّا شَغَلُوا عُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي شَهَوَاتِ نَفْسِهِمْ،
وَفِي مَخَالَفَةِ أَمْرِ بَارئِهِمْ.. فَسَدَّتْ عُقُولُهُمْ فَصَارُوا مَعَ مَا يَدْعُونَ مِنَ الْحِنْكََةِ وَالْخَبَرَةِ
وَالْتَخْطِيطِ لَا يَعْقِلُونَ تَمَامًا.

فَلَوْ أَعْطَيْنَا رَجُلًا يَدَّعِي قُوَّةً فِي الْعَقْلِ.. مَلِكًا وَوَزِيرًا نَاصِحًا وَكَلْبًا
وَخَنزِيرًا وَقَلْنَا لَهُ إِنَّ هَذَا الْخَنزِيرَ سَيَكْفِيكَ بَعْضَ الْقَاذوراتِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَأْكُلُهَا،
وَالْكَلْبَ لِحِرَاسَتِكَ وَدَفْعِ الضَّرِّ عَنْكَ، لَكِنْ اسْتَقَامَةَ الْكَلْبِ وَالْخَنزِيرِ تَحْتَ إِشَارَةِ
هَذَا الْمَلِكِ وَهَذَا الْوَزِيرِ النَّاصِحِ، فَقَالَ لِلْكَلْبِ: اْعْمَلْ مَا شِئْتَ، وَلِلْخَنزِيرِ اْعْمَلْ
مَا شِئْتَ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ سَحَّرَ كُلَّ مُلْكِكَ لَخِدْمَةِ الْكَلْبِ وَالْخَنزِيرِ، وَقَالَ لِلْوَزِيرِ
النَّاصِحِ اسْتَخْدَمْ مَا عِنْدَكَ مِنْ حِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ لَتَنْفِذِ مُرَادِ هَذَا الْكَلْبِ وَالْخَنزِيرِ،
فَهَلْ هَذَا عَاقِلٌ وَقَدْ سَحَّرَ الْمَلِكُ وَالْوَزِيرُ لَخِدْمَةِ الْكَلْبِ وَالْخَنزِيرِ؟

فَمَاذَا لَوْ قَالَ لِلْمَلِكِ وَالْوَزِيرِ: اسْجُدَا لِلْكَلْبِ وَالْخَنزِيرِ! هَلْ عِنْدَ هَذَا ذَرَّةٌ
مِنَ الْعَقْلِ؟

وَكُلُّ إِنْسَانٍ مَعَهُ قَلْبٌ وَعَقْلٌ وَغَضَبٌ وَشَهْوَةٌ؛ أَرْبَعَةٌ كَمَا فِي الْمَثَالِ؛ مَلِكٌ
وَوَزِيرٌ نَاصِحٌ وَكَلْبٌ وَخَنزِيرٌ.

فَالَّذِي سَجَدَ لِشَهْوَتِهِ وَلِغَضَبِهِ الطَّبْعِيِّ فِي مَخَالَفَةِ الشَّرْعِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

مَنْ يَسْجُدُ لِلْكَلبِ وَالْخَنزِيرِ^(١)؟

هو ليس بأحسنَ حالًا ممن سجدَ للكلِّ والخنزير، فالكلُّ والخنزيرُ لا يدخلان النارَ وهذا يدخلُها والعيادُ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأين العقلُ عند هذا؟
(فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ دَعُوهَا وَرَاكَ) : ولا تجعلُ أَمَامَكَ إِلَّا الاعتمادَ على رَبِّ الأنامِ، والائتمامَ بخيرِ إِمَامٍ، في كلِّ وَجْهَةٍ وَحَرَكََةٍ وَسُكُونٍ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تكونَ بين يديه في حَالٍ أَجْمَلٍ ولا أَكْمَلَ ولا أَفْضَلَ مِنْ حَالِ اقْتِدَائِكَ بحبيبه وتَبَعِيَّةِ أَحَبِّ الخلقِ إليه.

والذين انطَوُوا في الحبيبِ شَأْنُهُمْ عَجِيبٌ غَرِيبٌ رَهِيبٌ، فحَيَّا اللهَ أولئك القومَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ مُنِيبٍ وَسَالِكٍ وَأَدِيبٍ.

(فِكْرُكَ وَاخْتِيَارُكَ دَعُوهَا وَرَاكَ) : واعلمْ أَنَّ اختيارَ الله خيرٌ لك مِنْ اختيارِكَ الذي ينالُهُ القُبْحُ، وَأَنَّ تَديبَهُ أَجْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ تَديبِكَ الذي يلحقُهُ السُّوءُ.

وَحُسْنُ تَديبِ الله، وَجَمِيلُ اختيارِهِ.. مُنْزَعٌ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَقُبْحٍ؛ فَإِذَا أَرَادَ بِكَ الْخَيْرَ جَلَّ جَلَالُهُ أَحْسَنَ لَكَ التَّديبِ، وَاخْتَارَ لَكَ الْجَمِيلَ.

(١) قال الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين : «وهذا حال أكثر الناسِ مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ولو كُشِفَ الغطاء عنه وكُوشِفَ بحقيقة حاله ومثَّلَ له حقيقة حاله كما يُمَثَّلُ للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرةً وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره، فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدققاً بالفكر في

حيل الوصول إلى طاعته» باب : بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل (١١ / ٣)

فِكْرَكَ واختيارَكَ دَعْمَهَا وراك ..

(والتَّدْبِيرُ أَيضًا) : إِذَنْ فَنَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ بِالْمِيزَانِ الشَّرْعِيِّ، وكذلك التَّدْبِيرُ الشَّرْعِيُّ فِي كَيْفِيَةِ الْوُصُولِ إِلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ؟ وَكَيْفِيَةِ الْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ وَالْإِكْتِثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ؟ وَكَيْفِيَةِ تَرْكِ الْمُحَرَّمَ وَالْإِبْتِعَادِ عَنْهُ، وَكَيْفِيَةِ تَرْكِ الْمَكْرُوهِ؟ تَدْبِيرُكَ لِهَذَا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، لَكِنْ مَعَ هَذَا التَّدْبِيرِ فِي شُؤُونِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِ اسْتَعْمَلْ فِكْرَكَ عَلَى أَنَّهُ آلَةٌ مَخْلُوقَةٌ وَاعْتَمِدْ عَلَى الْخَالِقِ.

أما فيما يتعلَّقُ بِالْاعْتِمَادِ وَالْإِسْتِنَادِ عَلَى الْفِكْرِ وَالْإِخْتِيَارِ وَالتَّدْبِيرِ فَاجْعَلْهُ وَرَاءَكَ، لِأَنَّكَ قَدْ تَخْتَارُ شَيْئًا وَفِيهِ هَلَاكُكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ، قَالَ نَعَالَى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]

الهجرة درس في الاعتماد على الله مع حسن التدبير:

ففي الهجرة مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَامَ بِالْأَسْبَابِ كُلِّهَا كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مِنْ خُرُوجِهِ سِرًّا بِغَيْرِ الطَّرِيقِ الْمَعْتَادِ وَمُكُوثِهِ وَسَطَ الْغَارِ، وَتَوَكُّلِهِ مَنْ يَأْتِي لَهُمُ بِالطَّعَامِ وَالْأَخْبَارِ، وَكَانَ اللَّهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَسْرِىَ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي لَحْظَةٍ كَمَا أَسْرَى بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، لَكِنْ لِيَكُونَ قُدُوءٌ لِمَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ فِي الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَنَعَالَى، وَمَعَ أَنَّهُ قَامَ بِالْأَسْبَابِ كُلِّهَا كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا أَنَّ الْمَشْرِكِينَ وَصَلُّوا إِلَى فَمِ الْغَارِ فَانْتَهَتْ كُلُّ تِلْكَ الْخِطَطِ، لِيَقُولَ اللَّهُ لَهُ: دَبَّرَ ذَلِكَ امْتِثَالًا لِأَمْرِي،

وسأريك أني أنا الذي أحميك وليس تدبيرك.

ولأن الحبيب يعلم من الذي أمره بذلك كان مطمئن البال، حتى أن سيدنا أبابكر لما رأى القوم على باب الغار فرغ، وقال: يا رسول الله إن أهلك فإنما أنا ابن أبي قحافة، لكن إن تهلك أنت تهلك الأمة من بعدك، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١)؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

مَعَنَا﴾

وبعد أن انتهت الثلاثة الأيام خرج صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الغار، وتنقل من مكان إلى مكان متعرّضاً للجوع والعطش والشمس حتى وصل المدينة بعد أربعة عشر ليلة، فاستقبلوه بطلع البدر علينا، ولا يزال بدره طالعا ونوره ساطعا، ولم يزل لمجاميع الخير جامعاً صلوات الله وسلامه عليه.

(واشهد من براك): إشهد من خلقك وأنشأك وأوجدك من العدم، وخلق كل هذه الكائنات من حولك، وكُن مُستَحْضِراً عَظَمَتِهِ، وأن تدبيره أحسن من تدبيرك، ولا تغفل عنه، ولا تنحجب عنه، ولا تستر نفسك عنه، أما هو فلا يستطيع شيء أن يستره، ولا أن يحجبه.

وهل مع هؤلاء المكلفين من حجاب إلا أنفسهم، فأنواع الحجاب هم، فإذا أنهى العبد كل وهم استقلال وجود له، واستقلال فعل له.. خرج عن نفسه

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٤/١٨٥٤) الناشر:

دار إحياء التراث العربي - بيروت.

وَتَلَاثَتِ الْحُجُبُ كُلُّهَا .

قال القائل :

حجائبك منك وما تشعُرُ وداؤُك فيك وما تبصُرُ

وتحسبُ أنَّك جرْمٌ صَغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

(واشهد مَنْ بَرَأكَ) : اشهد مَنْ خَلَقَكَ فَصَوَّرَكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا

شَاءَ رَبُّكَ، قَالَ تَعَالَى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]

(مَوْلَاكَ الْمُهِيمِنُ) : المتولَّى لأُمُورِكَ.

فَإِنْ قَبِلْتَ دَعْوَتَهُ وَأَجَبْتَ نِدَاءَهُ وَنَفَذْتَ أَمْرَهُ كَانَ مُتَوَلِّيكَ بِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ

وَعَطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ وَإِثَابَتِهِ وَحُسْنِ جَزَائِهِ وَوَاسِعِ عَطَائِهِ وَعَظِيمِ آلَائِهِ، بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ.

وَإِنْ أَعْرَضْتَ وَأَذْبَرْتَ وَتَوَلَّيْتَ وَعَانَدْتَ كَانَ مَوْلَاكَ الْقَاهِرَ لَكَ، الَّذِي

يُرْسِلُ إِلَيْكَ سَخَطَهُ وَنِقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ وَطَرْدَهُ وَبُعْدَهُ وَلَا طَاقَةَ لَكَ بِذَلِكَ.

(مَوْلَاكَ الْمُهِيمِنُ) : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ هَيْمَتِهِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ،

وَكُلُّ شَيْءٍ صُنِعُهُ، وَخَلَقُهُ، وَمُلْكُهُ، وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(مَوْلَاكَ الْمُهِيمِنُ) : عَلَى الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْخَوَاطِرِ وَالنَّظَرَاتِ وَالْمَقَاصِدِ

وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالنَّعِيمِ وَالْعَذَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ

والجمادات والحيوانات والنباتات والبراري والبحار والهواء .

والهيمنة بهذا المعنى ليست لغيره أصلاً، ومهما تهيمَن مخلوقٌ على مخلوقٍ فيحدودٍ، أما الهيمنة المطلقة فله وحده عَزَّوَجَلَّ.

(إِنَّهُ يَرَاكَ) : قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦-٧] فهو أَعْلَمُ بِكَ وبأحوالك وبما يُصْلِحُكَ.

ومما جاء في بعضِ كُتُبِ الله المنزلة : (يا ابنِ آدَمَ أطعني فيما أَمَرْتُكَ، ولا تُعَلِّمْنِي بما يُصْلِحُكَ، إني عالمٌ بِخَلْقِي، وأنا أَعْلَمُ بِحَاجَتِكَ التي ترفعُكَ من نفسك^(١))

وهو أَعْلَمُ بأعدائك، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٥]

فاعتمدْ عليه وسِرِّيكَ فيهم قُدْرَتُهُ، وكم أَرَىٰ بِقُدْرَتِهِ مِنْ عَدُوٍّ رَدَّهُ إِلَى خَادِمٍ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المتحنة: ٧]

واستندوا إليه فهو نِعَمَ المولى ونِعَمَ النَّصِيرِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٣١٣/٩) الناشر: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾
[الأنفال: ٣٩ - ٤٠] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ

لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]

وَمَنْ تَوَلَّىٰ غَيْرَهُ فَهُوَ الْمُسْكِينُ الْمَغْبُونُ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَىٰ دَوْلَةٍ أَوْ جَيْشٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَمَثَلُهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
[العنكبوت: ٤١]

فيا نعم المولى والنصير تَوَلَّنا وانصُرنا على القوم الكافرين، ولا تَكِلْنَا إلى أَنْفُسِنَا وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

(إِنَّهُ يَرَاكَ) : قَالَ سَيِّدُنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ أَنفِرًا عَلَيْنَا أَوَّانٌ يَظُنُّ﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿طه: ٤٥ - ٤٦﴾

وما دامَ اللَّهُ يَرَاكَ وَيَسْمَعُكَ وَيَطَّلِعُ عَلَيْكَ وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ف..
(فَوْضَ لَهُ أُمُورُكَ) : ارْجِعْ أُمُورَكَ كُلَّهَا إِلَيْهِ؛ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَأُسْرَتِكَ وَدِينِكَ وَدُنْيَاكَ وَبَرْزَخِكَ وَآخِرَتِكَ وَحَيَاتِكَ وَمَمَاتِكَ وَحِسِّكَ وَمَعْنَاكَ وَظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ، وَآثَارِكَ مِنْ بَعْدِكَ، مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ، مُسْتَنْدًا إِلَيْهِ، مُوقِنًا وَاثِقًا بِهِ.

وما أَحْسَنَ التَّفْوِيزَ إِلَىٰ قَوِيٍّ عَلِيمٍ قَدِيرٍ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يُسْتَبَعَثُ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْاسْتِشْعَارِ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَاءِهِ وَقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِ وَخَيْرَاتِهِ حَتَّىٰ يَتِمَكَّنَ ذَلِكَ فِي الْقَلْبِ

والضمير فيعتمد الاعتماد الصادق القوي على رب العباد جلّ جلاله.

وهذه أحوال شريفة موطنها القلوب، وإذا سكنت فيها كانت لها النتائج

العجيبة الظريفة الرفيعة المنيفة من تأييد الله ونصرتِه وتسديده، قال تعالى: ﴿وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]

وقد حكى الله لنا قصة الرجل المؤمن من قوم فرعون الذي دعا قومه إلى

الله، فلم يستجيبوا له فقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]

فما النتيجة؟

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَخَافَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ

عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦]

وقال سيدنا لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، قال

صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي لُوطًا لَقَدْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١).

ولهذا يقول سيدنا جعفر الصادق: عَجِبْتُ مَنْ خَافَ مَكْرَ الْخَلْقِ بِهِ كَيْفَ

يَغْفُلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ والله يقول:

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾

قال الإمام أبو بكر العدني:

إن في التسليم راحة عاجلة ومن التفويض فيضان المني

(١) ذكره الطبري في تفسيره عن قتادة (١٥/٤١٩/١٨٣٩٦) الناشر: مؤسسة الرسالة ط: ١ /

فَفَوْضْ أَمُورَكَ إِلَيْهِ وَ..

(وَاحْسِنُ فِي الظُّنُونِ) : أَي : احْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ فَتَظُنُّ بِهِ أَنْ يَغْفُوَ وَأَنْ يَصْفَحَ وَأَنْ يَغْفِرَ وَأَنْ يَتَكَرَّمَ وَأَنْ يَجُودَ، وَأَنْ يُحْسِنَ، وَأَنْ يَتَحَمَّلَ الْإِبْتِلَاءَاتِ وَالْامْتِحَانَاتِ وَالْإِخْتِبَارَاتِ وَالتَّبِعَاتِ.

وَعَلَامَةُ صِدْقِ حُسْنِ الظَّنِّ حُسْنُ الْعَمَلِ، فَمَنْ حَسَنَ ظَنَّهُ بِكَ هَلْ يَتَصَدَّقُ لِأُذَاكَ أَوْ لِضُرِّكَ؟

مَنْ حَسَنَ ظَنَّهُ بِكَ تَعَرَّضَ لِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَرَجَعَ إِلَيْكَ، وَاعْتَرَفَ لَكَ، وَأَجَلَّكَ، وَأَكْرَمَكَ.

فكَذَلِكَ مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَأَجَلَّهُ وَعَظَّمَهُ وَرَجَا مَا عِنْدَهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلِيظُنَّ بِي مَا شَاءَ ^(١) " فَاصْدُقْ فِي أَيِّ ظَنٍّ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا وَخُذْ مُقَابِلَهُ .

يَقُولُ اللَّهُ عَنِ الْكَافِرِينَ : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ ﴿ [فصلت: ٢٢-٢٣]

قال الإمام الحداد عليه رحمة الله :

وَحُسْنِ الظَّنِّ الْأَزْمُ فَهُوَ خَلِّي وَحَلِيفِي
وَأَنِيسِي وَجَلِيسِي طُولَ لَيْلِي وَنَهَارِي

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن واثلة بن الأسقع، باب ذكر الأخبار فيها يجب على المرء (٢/٤٠٢/٦٣٤)

الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت

رَزَقَنَا اللهُ الْاعْتِمَادَ عَلَيْهِ، وَالْإِسْتِنَادَ إِلَيْهِ، وَتَسْخِيرَ الْفِكْرِ وَالتَّدْبِيرِ فِيهَا
يُرْضِيهِ كَمَا يُرْضِيهِ فِي عِبَادَتِهِ لَهُ، وَسَلَامَةً مِنَ الْإِتِّكَالِ عَلَى أَنْفُسِنَا أَوْ عَلَى أَحَدٍ مِنْ
خَلْقِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقَلَّ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ وَمِنْ عَذَابِكَ نَسْتَجِيرُ أَصْلِحْ لَنَا
شَأْنَنَا بِمَا أَصْلَحْتَ بِهِ شُؤُونَ الصَّالِحِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

لَوْ وَلِمَ وَكَيْفَ * قَوْلُ ذِي الْحَمَقِ^(١) يَعْتَرِضُ عَلَى اللَّهِ * الَّذِي خَلَقَ
وَقَضَى وَقَدَّرَ * كُلَّ شَيْءٍ بِحَقِّ يَا قَلْبِي تَبَّهْ * وَاتْرُكِ الْمُجُونَ
لَا يَكْثُرُ هُمُكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



(لَوْ وَلِمَ وَكَيْفَ قَوْلُ ذِي الْحَمَقِ) : يَنْبَهُنَا الشَّيْخُ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
إِلَى وَجُوبِ التَّحَرِّيِّ فِي الْأَلْفَاظِ وَأَنْ لَا يُنْطَقَ بِهَا إِلَّا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِالْعَبْدِ
مَعَ رَبِّهِ الْخَلَاقِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَعَالَى فِي عُلَاهُ، فَلَا تُرْسَلُ الْأَلْفَاظُ بِلاَ بَصِيرَةٍ وَلَا بَيِّنَةٍ.
وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْجَزَعِ وَعَنِ الْإِعْتِرَاضِ وَعَنِ التَّعَجُّبِ فِي أَنْ تَمَشِيَ
الْأُمُورُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِ الْعَبْدِ وَمَا يَهْوَى، بـ (لَوْ وَلِمَ وَكَيْفَ) مِنْهِيَّ عَنْهُ إِذَا جَاءَ عَلَى
هَذَا الْوَجْهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَنَزَّهَ الْمُؤْمِنُ عَنْهُ فِي حَالِهِ مَعَ رَبِّهِ، فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى الْحُمُقِ
وَالْجَهْلِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْرِيَ فِي الْمَمْلَكَةِ شَيْءٌ عَلَى مُرَادِهِ لَا عَلَى مُرَادِ اللَّهِ فَمَا ذَاكَ إِلَّا
أَحْمَقُ جَاهِلٌ .

وَالْأَحْمَقُ هُنَا مُلْتَحِقٌ بِالْعَاجِزِ الَّذِي يُتَّبِعُ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَيَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ
الْأَمَانِي كَمَا فِي حَدِيثِ : «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ
اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(٢) فَمِنْ جُمْلَةِ إِتْبَاعِ النَّفْسِ الْهَوَى أَنْ يَعْتَرِضَ فِيهَا لَا

(١) الأحمق هو الأبله البليد الذي لا يدرك حقيقة الأشياء .

(٢) أخرجه أبو داود في مسنده عن شداد بن أوس (٢/ ٤٤٥/ ١٢١٨) الناشر: دار هجر - مصر، الطبعة: الأولى،

دَخَلَ له فيه، وما كان من فِعْلِ الحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

ولذلك كان يقولُ بعضُ العارفين : بَرَدَ جَاشِي على ما شَاءَ اللهُ كانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ.

وما دَامَ الأمرُ كذلك فما هُنَاكَ دَاعٍ لِقَلْبِي، ولا طَريقَةً لِلتَّحَكُّمِ على مَنْ خَلَقَ، فَإِنَّ مُرَادَ اللهِ هو الذي يَكُونُ لا مُرَادَ المخلوق، ولذا كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ في ما يجري لهم خِلالَ اليومِ والليلة مع خِدَائِمِهِمْ وَمَنْ يَعْمَلُ مَعَهُمْ إِذَا جَرَى شَيْءٌ على غير ما يُرِيدُونَ وعلى غير ما يَجِبُونَ أَنْ يَقُولُوا : قَدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فَعَلَ، فإذا عَاتَبُوا أَحَدًا مِنَ الخِدَّامِ قال لهم : قولوا : قَدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فَعَلَ.

وقال خَادِمُهُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ «لقد خَدَمْتُ رَسولَ اللهِ عَشَرَ سَنِينَ، فما قال لشيءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتُهُ، ولا لشيءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتُهُ»^(١).
وكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ قَصَرَ فَهْمُهُمْ وَمَعْرِفَتُهُمْ وَأَدَبُهُمْ لا تَمُرُّ عَلَيْهِ عَشْرُ سَاعَاتٍ إِلَّا وَ(لَوْ وَلِمَ وَكَيْفَ) تَرَدَّدُ على لِسَانِهِ أَوْ قَلْبِهِ كَثِيرًا.

لِمَ تقول : لِمَ؟ أَنْتَ مَلِكُ المَمْلَكَةِ؟

دَعِ مَلِكَ المَمْلَكَةِ يَدَبِّرُها كما يَشَاءُ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَعَالَى في علاه.

جاء في بعضِ الآثارِ : (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ وَأَنَا أُرِيدُ، ولا يَكُونُ إِلَّا ما أُريدُ،

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك، باب ما جاء في خلق النبي صلى الله عليه وسلم (٤/٣٦٨/٢٠١٥)

الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

فَإِنْ سَلَّمْتَ لِي فِيمَا أُرِيدُ أُعْطَيْتُكَ مَا تُرِيدُ، وَإِنْ نَازَعْتَنِي فِيمَا أُرِيدُ أَتَعَبْتُكَ فِيمَا تُرِيدُ،
ثُمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا أُرِيدُ.

اللهم ارزقنا حُسْنَ الْأَدَبِ وَالتَّسْلِيمِ .

وَكُلْ هَذَا مُرْتَبِطٌ بِالْمِيزَانِ الْحَكِيمِ، وَهُوَ أَنَّ مَا خُوطِبْتَ بِهِ، وَوُكِّلَ إِلَيْكَ
وَأُمِرْتَ بِهِ وَدَخَلَ تَحْتَ مَا أَتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ فَلَا عُذْرَ لَكَ فِي
التَّقْصِيرِ فِيهِ وَلَا الْاِحْتِجَاجِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَمَا خَرَجَ عَنْ قَبْضَةِ يَدِكَ وَعَنْ
قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ فَلَا مَعْنَى لِأَنْ تَعْتَرِضَ فِيهِ عَلَى مَنْ قَدَّمَ وَأَخَّرَ، بَلْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ
وَمَا شَاءَ فَعَلَ .

فَقُمْ بِوَاجِبِكَ وَسَلِّمْ لِأَمْرِ اللَّهِ .

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ عَوَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنَوَّرِينَ الْمُؤَفَّقِينَ يَسْتَحْضِرُ إِرَادَةَ الْمُرِيدِ
جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْأَفْعَالِ، فَكَلَّمَا رَأَى فِعْلَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ - فَإِنْ كَانَ مِمَّا يُحِبُّ وَيَهْوَى
فَلَا يَنْسَى الْمُنَّةَ لِلأَصْلِ وَهُوَ اللَّهُ، فَهُوَ الْمُحْسِنُ الْحَقِيقِيُّ، لَكِنْ أَجْرَاهُ عَلَى يَدِ هَذَا
الْعَبْدِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا يُسِيئُهُ وَلَا يُحِبُّهُ فَلَا يَنْسَى أَنَّ الْأَصْلَ اخْتِبَارُ مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَهَذَا
الْعَبْدُ مَجْرَدُ أَدَاةٍ فَقَطْ - فَكَانُوا يَرُدُّونَ دَائِمًا عِبَارَةَ (مَا هُوَ مِنْكَ) : أَيُّ مَا أَجْرَاهُ اللَّهُ
عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ كُنْتَ أَنْتَ السَّبَبُ فِيهِ لَكِنْ حَقِيقَةُ الْعَطَاءِ مِنَ اللَّهِ،
وَمَا سَلَّطَكَ بِهِ عَلَيْنَا بِكَلَامٍ أَوْ أَذَى أَوْ سُوءٍ مُعَامَلَةٍ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ لِيُخْتَبَرَنَا
وَيُؤَدِّبَنَا، وَلَيْسَ بِاسْتِقْلَالِكَ .

هَذَا حَالُ عَوَامِهِمْ .

وكثيرٌ ممن يرى نفسه عالِمًا لا يَصِلُ إلى درجتِهِم في الأدبِ مع الله، فهم أقربُ وهم الخَوَاصُّ .

كما سَمِعْتُمْ قولَ المُعْطِي الصَّالِحِ للفقيرِ الصَّالِحِ : خُذْ لَا لَكَ؛ أي أَنِي أعطيتك هذا مِن أَجْلِ اللَّهِ وليس مِن أَجْلِكَ، فَردَّ الفقيرُ الصَّالِحُ عليه : هَاتِ لَا مِنكَ؛ أي: أَجْرَاهُ اللَّهُ على يَدَيْكَ والمعْطِي هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذا نَسْمَعُ العَوَامَ يَقُولُونَ على مَا يَكُونُ بَيْنَهُم مِنَ الإِحْسَانِ : (يَا عبادي اعْطِ عبادي) أي أَنَّ اللَّهَ هو المعْطِي حقيقةً، لكن يجري هذا العَطَاءُ على يَدِ هذا وعلى يَدِ هذا فيكونون أسبابًا فَقَطْ.

أَمَّا وَرُودُ (لَوْ وَلَمْ وَكَيْفَ) على سبيلِ الاعتبارِ و الادِّكَارِ أو لعتابٍ صحيحٍ فليس هذا مقصودُ الإمامِ الحَدَّادِ، ففي كتابِ اللَّهِ وفي سُنَّةِ رسولِهِ وفي كلامِ الصالحين كثيرٌ من هذا. لكن المقصودُ في ذلك وَرُودُهَا على سبيلِ الاعتراضِ والجزعِ و التَّبَرُّمِ، وعلى سبيلِ استنكارِ أَن يجري أمرٌ على غيرِ مُرادِ الإنسانِ، فإِطلاقُ هذه الثلاثِ الكلماتِ في مُقابَلَةِ الحوادثِ والتَّدْبِيرِ الرَّبَّانِيِّ مُحَقَّقٌ وَغَبَاءٌ وَسَفَهَةٌ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : [إِنَّ هَذَا الْخَيْرَ خَزَائِنٌ، وَلَتلكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ، فَطوبى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مَفْتاحًا لِلْخَيْرِ مَغْلَقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مَغْلَقًا لِلْخَيْرِ مَفْتاحًا لِلشَّرِّ^(١)]، [وَوَيْلٌ لِمَنْ قَالَ : لِمَ وَكَيْفَ^(٢)]

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن سهل بن سعد، باب ثواب معلّم الناس الخير (١/١٦١/٢٣٨) دار الرسالة العالمية

(٢) كذا نقله صاحب كتاب قوت القلوب، قال العراقي في كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٥/٢٣٦٩/٣٧٧٦) رواه ابن شاهين في شرح السنة من حديث أبي أمامة بسند ضعيف اه ونص الحديث يقول الله في الحديث القدسي: (خلقت الخيرَ والشَّرَّ فطوبى لمن خلقتهُ للخيرِ وأجريتُ الخيرَ على يديه، وويل لمن خلقتهُ للشَّرِّ وأجريتُ الشَّرَّ على يديه، وويلٌ ثم وويلٌ لمن قال لِمَ وكيف).

وللإمام الحدّادِ في شؤونِ مُقابَلَةِ الحوادثِ وتركِ الاعتراضِ على الله عدوً
من الأبياتِ منها :

يا صابراً ابشِرْ وبَشِّرْ من صَبَرْ	بالنَّصْرِ والفَرَجِ القريبِ وبالظَّفَرِ
نالَ الصَّبُورُ بصبرِهِ ما يَرتَجِي	وَصَفَتْ لَهُ الأوقاتُ مِنْ بَعْدِ الكَدَرِ
فاصْبِرْ على المَحَنِ القَواصِدِ وانتَظِرْ	فَرَجاً تَدُولُ بِهِ دُؤْلُ القَدَرِ
وَإِذا الحَواذِثُ أَظْلَمَتْ وتَنَكَّرَتْ	فاسْكُنْ وإيّاكَ التَّحَرُّكَ والحَذَرِ
إِنَّ النَوائِبَ كالسَّحَابِ تَنجَلِي	في سُرْعَةٍ ووُجُودِها يُضْجِي خَبَرِ
وَإِذا تَطُولُ إقامَةُ مِنْ حادِثٍ	كانَتْ مُبَشِّرَةً بِطُولِ المَتَظَرِ ^(١)
واعلَمْ بأنَّ الكونَ مطبوعٌ على التَّـ	غْيِيرِ والتَّكْـدِيرِ فامعِنْ في النَّظَرِ
واغنمْ زَمَانَكَ راحَةً وتَرَوُّحاً	ودَعْ الهُمومَ فَإِنَّها مُحْضُ الضَّرَرِ
وادخُلْ مِيايِدِينَ التَّوَكُّلِ والرِّضَا	واشكُرْ على ما ساءَ مِنْ حالٍ وسَرِ
واقْتَدِ بَناجِ الأَصْفِيا عَلِمَ الهُدَى	زَيْنِ الوُجُودِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَشَرِ

فَتأمَّلْ سِيرَ الأنبياءِ والأَصْفِيا والأولياءِ وسِيرَ مُلُوكِ الأرضِ وحُكَّامِها
كلُّهم تَجِدُ هذا الكونَ مطبوعٌ على التَّغْيِيرِ والتَّكْـدِيرِ .

وقَدْ كابدَ الأنبياءُ والأولياءُ والأقطابُ والعارفونَ المَحَنَ والشَّدائِدَ، وأنتَ
لا تَريدُ مَكابِدَةَ شَيْءٍ ؟

(١) أي أن بعدها خيراً كثيراً .

يقول:

وَكَمْ مَحَنَةٍ كَابَدْتُهَا وَبَلِيَّةٍ إِلَى أَنْ أَتَانَا اللَّهُ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى انْقَضَى وَقْتُهَا الَّذِي بِهِ وُقِّتَتْ فِي سَابِقِ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ
وَلَوْ أَنَّي بَادَرْتُهَا قَبْلَ تَنْقِضِي بِمَا تَقْتَضِيهِ النَّفْسُ فِي حَالَةِ الْعُسْرِ
مِنْ الْجَزَعِ الْمَذْمُومِ وَالْغَمِّ وَالْأَسَى لَكُنْتُ قَدْ اسْتَجَلَبْتُ ضُرًّا إِلَى ضُرِّي
وَمَا جَزَعُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَةِ الْبَلَاءِ سِوَى تَعَبٍ فِي الْحَالِ يُذْهِبُ بِالْأَجْرِ
إِذَا مَا ابْتَلَاكَ اللَّهُ فَالصَّبْرُ حَقُّهُ عَلَيْكَ وَإِنْ أَوْلَاكَ فَالْحَقُّ فِي الشُّكْرِ
فَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ طُولَ حَيَاتِهِ وَمَا دَامَ فِيهَا مِنْ مُلَازِمَةِ الصَّبْرِ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ قَدْ تَجَافَى نَعِيمَهَا وَآثَرَ دَارًا خَيْرَهَا أَبَدًا يَجْرِي
هِيَ الْجَنَّةُ الْخُلْدُ الَّتِي طَابَ نَزُّهَا لِقَوْمٍ أَطَاعُوا اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
رَجَالٍ كَرَامٍ عَظَّمُوا حَقَّ رَبِّهِمْ وَقَامُوا بِهِ فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
هُدَاةِ الْوَرَى طُوبَى لِعَبْدٍ رَأَاهُمْ وَجَالَسَهُمْ لَوْ مَرَّةً مِنْهُ فِي الْعُمُرِ
كَتَبَ أَحَدُهُمْ إِلَى أَخِيهِ فِي مَصِيبَةٍ نَالَتْهُ يَقُولُ لَهُ : اْعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّكَ إِنْ
صَبَرْتَ نَفَذَ قَضَاءُ اللَّهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزَعْتَ نَفَذَ قَضَاءُ اللَّهِ وَأَنْتَ مَازُورٌ، فَلَا
تُفَوِّتَ الْأَجْرَ بِالْجَزَعِ .

إِذْنِ فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ مَا دَامَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنِ الصَّبْرِ
إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا

صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]

والأحمق مَنْ قال : لو وَلِمَ وكيف ..

(يَعْتَرِضُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ) : وكيف يعترض مَنْ كان نُطْفَةً ثُمَّ عِلْقَةً ثُمَّ

مُضْغَةً عَلَى جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

مَنْ هُوَ حَتَّى يَعْتَرِضَ؟

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

يُروى أن بعض الأنبياء في بني إسرائيل سُلِّطَتْ فِي بَعْضِ قُرَاهِمُ امْرَأَةٌ ظَالِمَةٌ تَظْلِمُ النَّاسَ وَتُؤْذِيهِمْ، فَشَكَاَ إِلَى اللَّهِ أَمْرَهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ (إِنِّي خَلَقْتُهَا وَخَلَقْتُ لَهَا أَيَّامًا تَظْلِمُ فِيهَا، فَفِرْ مِنْ أَمَامِهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ أَيَّامَهَا) أَي : عِنْدِي قَضَاءٌ وَقَدَرٌ أَمْضِيَّتُهُ بِحُكْمَتِي، وَلَنْ أُرَدَّهُ بِتَفْكِيرِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، فَأَعْرِفْ مَا جَاءَ مِنْ أَمْرِي، وَالتَّزَمْ بِمَا أَحْبَبْتُ مِنْكَ وَلَا تَعْتَرِضْ.

فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ..

(قَضَى وَقَدَّرَ) قَضَى : فِي سَابِقِ عِلْمِهِ، وَقَدَّرَ : بِأَنْ أَجْرَى الْحُكْمَ عَلَى مَا

سَبَقَ فِي الْعِلْمِ.

فَالْقَضَاءُ مَا كَانَ فِي الْأَزَلِ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ كَذَا، وَالْقَدَرُ حُدُوثُ ذَلِكَ

فِي الْوَاقِعِ، وَبَرُوزُهُ فِي عَالَمِ الْحَسِّ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ، وَبِالْحَالِ وَالْهَيْئَةِ الَّتِي قَضَاهَا .

وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ شَأْنُ الْأَكْيَاسِ، وَالْقُوَّةُ فِي هَذَا الرِّضَا خُصُوصِيَّةٌ

الصَّدِيقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ عَلَامَةُ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ، فَاطْلُبْ رِضَاهُ عَنْكَ بِرِضَاكَ عَنْ

أَقْضَيْتِهِ وَأَقْدَارِهِ بِحُسْنِ الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ وَعَدَمِ الْجَزَعِ، وَرِضَاكَ عَنْ حُكْمِهِ بِحُسْنِ
الامْتِثَالِ وَالاجْتِنَابِ، وَكَلِمَا قَوِيَّتَ فِي رِضَاكَ عَنْهُ قَابَلَكَ رِضَاهُ عَنْكَ، وَيُسْتَشْفَى
سِعَةً وَعَظَمَةً رِضَاهُ عَنْكَ بِمَا فِي قَلْبِكَ مِنَ الرِّضَا بِأَحْكَامِهِ وَأَقْدَارِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(وَقَضَى وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ بِحَقِّ) أَي بِحِكْمَةٍ، فَلَا يَقْضِي وَلَا يُقَدِّرُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَبَثًا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ

ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]

وَمِنْ ظَنٍّ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
كَانَ لِأَجْلِ أَنْ يَعْمَلُوا فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ مُشْتَهَاتِهِمْ، وَجَلَبِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَطْمَعُ
فِيهَا نُفُوسُهُمْ، فَانْطَلَقُوا فِي كَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَا سَخَّرَهُ لَهُمْ يُسَيِّرُونَهُ فِي مُشْتَهَاتِهِمْ
لَا يَقِفُونَ عِنْدَ أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ

النَّارِ ﴾

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ لِحِكْمَةٍ، قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ
: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [١٩٠] الَّذِينَ
يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١٩١] رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٢]

وَالْخِزْيُ الْعَظِيمُ أَنْ يُدْخِلَكَ نَارَ الْجَحِيمِ.

أَمَّا الْكَرَامَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ : ﴿يَوْمَ لَا يُحْزِي اللَّهَ أَلْتَبَّيَّ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا
إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨]

(وَقَضَىٰ وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ بِحَقِّ) : وفي طَيِّ أَقْصِيَّتِهِ حِكْمٌ تَلِيْقُ بِعَظَمَتِهِ
وَعِلْمِهِ الْمُطْلَقِ جَلَّالَهُ، يُخْفَىٰ فِيهَا - مهما انْكَشَفَ لِأَرْبَابِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ وَالْمَعْرِفَةِ
بِهِ حِكْمٌ فِيهَا - مَا يُخْفَىٰ عَلَى الْكُلِّ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا
نُنْزِلُهُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وَقَالَ عَزَّجَلَّ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمَر: ٤٩]
وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
[المائدة: ٥٠]

وكان أهل الحِكْمَةِ فِي الْأُمَّةِ يَقُولُونَ : طَيِّ الْأَقْدَارِ أَسْرَارٌ .
وقد عبَّرَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ بِلسَانِ الْمَعْرِفَةِ عَنْ إدْرَاكِ هَذَا وَذَوْقِهِ فَقَالَ : "لَوْ كُشِفَ
الْغِطَاءُ لَمَا اخْتَرْتُمْ إِلَّا الْوَاقِعَ"

لأنَّ هَذَا الْوَاقِعَ جَرَى بِحِكْمَةِ حَكِيمٍ، وَعِلْمِ عَلِيمٍ عَظِيمٍ، فَلَنْ تَجِدُوا -
مهما تَصَوَّرْتُمْ وَتَحَيَّلْتُمْ - أَفْضَلَ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا.

وهذه الْحَقِيقَةُ لَا تَتَنَاقُضُ وَلَا تَتَنَافَى وَلَا تَتَضَادُّ مَعَ حَقِيقَةِ وَجُوبِ الْإِلْحَاحِ
عَلَى اللَّهِ فِي الطَّلَبِ، وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِالْمُسْتَطَاعِ فِيمَا جَعَلَ مِنْ سَبَبٍ، وَلَا تَتَنَاقُضُ
مَعَ وَجُوبِ الْجِتْهَادِ فِي الطَّاعَاتِ، فَكُلُّهُ مُنْطَوٍ تَحْتَ حِكْمَةِ رَبِّ الْخَلِيقَةِ الدَّقِيقَةِ،
جَلَّ جَلَالُهُ وَتَعَالَى فِي عِلَاهِ، وَلَا يَكُونُ فِي مَشَاهِدِهِمْ [مَنْ هُمْ؟] عِنْدَمَا تَتَجَلَّى لَهُمْ هَذِهِ
الْحَقَائِقُ فِي ذَرَاتِ الْوُجُودِ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا :

وَأَشْهَدْ جَمَالًا أَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ظَاهِرًا لَا خَافِي
وَمِنْ شِدَّةِ ظُهُورِهِ خَفِيَ عَلَى أَهْلِ الْحِجَابِ وَهُمْ الْأَكْثَرُ، وَطَالَعَ مَنْ طَالَعَ
مَا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ، وَمَا عَلَّمَهُمْ رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ دَائِرَةِ : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ
الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وَتَحْتَ حَقِيقَةِ : ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]

(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : لِعِظَمَةِ هَذَا الْإِلَهِ وَحِكْمَتِهِ، وَأَسْرَارِ تَقْدِيرِهِ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَمَا
انطوى فيها مما يغيبُ عنك، وَلَا تَصِلُ إِلَى حَقِيقَتِهِ .
(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَا تَقْوَى عَلَى اسْتِعَابِ الْأَشْيَاءِ .
(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : أَنَّكَ لَوْ ابْتَلَيْتَ بَبْلِيَّةً لَذَهَبَ كُلُّ مَا عِنْدَكَ أَمَامَهَا وَانْتَهَى
أَمْرُكَ .

(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : أَنَّ فِي خَزَائِنِهِ تَعَالَى مَا يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ فَالزَّمِ الْأَدَبَ .
(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : أَنَّكَ عَبْدٌ وَأَنْ رَبَّكَ مَوْلَى الْمَجْدِ .
(يَا قَلْبِي تَنْبَهْ) : أَنَّ وَاجِبَكَ الْخُضُوعُ وَالْإِسْتِسْلَامُ وَالرِّضَا بِمَا حَكَمَ الْمَلِكُ
الْعَلَامُ .

اعْطِ الْمَعِيَّةَ حَقَّهَا وَالزَّمْ لَهُ حُسْنَ الْأَدَبِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَبْدُهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَهُوَ رَبٌّ
فَمَا يَلِيقُ بِالْعَبْدِ إِلَّا الْخُضُوعُ وَالْإِنْكَسَارُ وَالْأَدَبُ وَالتَّسْلِيمُ وَالرِّضَا .
وَقَدْ أَخَذَ الْعِبْرَةَ بَعْضُ الْأَخْيَارِ وَقَدْ اشْتَرَى مَمْلُوكًا رَقِيقًا، فَسَأَلَهُ: مَا

اسْمُكَ؟ قال ما سَمَّيْتَنِي، قال فما شَغَلْتُكَ؟ قال ما شَغَلْتَنِي، فقال له: ما لِبَاسُكَ؟ قال ما أَلْبَسْتَنِي، قال: فهل عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قال: العبدُ لا يَمْلِكُ شَيْئًا مع سَيِّدِهِ. فقال هذا الرَّجُلُ في نفسه: هذا مملوكٌ وأنا مملوكٌ، كُلُّنَا مملوكَيْنِ لله فكيف أنا مع ربي؟

ما اسْمِي إلا ما سَمَّاني به ربي، ولو ناداني النَّاسُ بأيِّ اسمٍ، وما ينبغي أن يكون شُغْلِي إلا بما شَغَلَنِي به ربي، فلماذا اشتغلُ بغيره؟ فاتَّعَظَ بمملوكه، ووَقعَ فَتَحُ البابِ على يَدِ ذَلِكَ المملوكِ، فصار مملوكُهُ أستاذَهُ.

وكان سيِّدنا الشيخُ أبوبكر بن سَالم لا يَجْلِسُ إلا مُتَوَرِّكًا أو مُفْتَرِشًا في مجالِسِهِ كُلِّهَا مدَّةَ خَمْسَةِ عَشَرَ سَنَةً، فقالوا له: ألا تَتَعَبُ؟ فقال: إنما أنا عبدٌ وهذه جِلْسَةُ العبدِ بين يدي سيِّدِهِ.

قال سيِّدُهُم حبيبُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (إنما أنا عبدٌ آكُلُ كما يَأْكُلُ العَبْدُ، وأَجْلِسُ كما يَجْلِسُ العَبْدُ^(١)) فصلى الله على خيرِ عبدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أهلِ المجدِ ومَنْ دَخَلَ في دائِرَتِهِمْ .
فَتَبَّهَ هَذَاكَ اللهُ ..

(واتركِ المُجُونُ): اتركِ عَدَمَ المبالاةِ بالأمرِ، واتركِ السَّفَةَ وَعَدَمَ إنزالِ الشَّيْءِ في مَنْزِلَتِهِ، واتركِ عَدَمَ المبالاةِ بالمِهْمَاتِ والقضايا العظيمةِ، واتركِ التَّساهلَ فيما يَجِبُ أن يُنْتَبَهَ لَهُ، ويُعْظَمَ أمرُهُ فيه.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن يحيى بن أبي كثير، باب أكل اللحم (٨/ ١١٦ / ٥٥٧٢) الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، وأخرجه أبو يعلى من طريق عائشة (٨/ ٣١٨ / ٤٩٢٠)، وأخرجه البزار في البحر الزخار من طريق آخر عن ابن عمر من دون لفظ (وأجلس) (١٢/ ١٥٤ / ٥٧٥٢) الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

قَدْ ضَمِنَ تَعَالَى * بِالرِّزْقِ الْقَوَامَ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ * نُورًا لِلْأَنَامِ
فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ * وَالسَّخَطُ حَرَامٌ وَالْقُنُوعُ رَاحَةٌ * وَالطَّمَعُ جُنُونٌ
لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



(قَدْ ضَمِنَ تَعَالَى بِالرِّزْقِ الْقَوَامَ) : جَعَلَ اللَّهُ فِي الْأَرْزَاقِ تَقْتِيرًا وَسِعَةً،
وَكُلَّهَا بِأَمْرِهِ، وَجَعَلَ ضَمَانًا لِكُلِّ دَابَّةٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِيمَا
يَتَعَلَّقُ بِالرِّزْقِ الْقَوَامِ مُدَّةَ الْعُمُرِ الَّذِي كُتِبَ لَهَا.
وَالرِّزْقُ الْقَوَامُ : الرِّزْقُ الضَّرُورِيُّ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْبَدَنُ مَا دَامَ فِي الْحَيَاةِ،
وَلَنْ يَمُوتَ أَحَدٌ حَتَّى يَسْتَنْفِدَ رِزْقَهُ وَلَوْ مِقْدَارَ حَبَّةٍ، فَإِذَا بَقِيَ لَكَ يَوْمٌ فِي الْحَيَاةِ
فَرِزْقُ هَذَا الْيَوْمِ مَضْمُونٌ لَكَ مِنْ قَبْلِ خَالِقِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهَكَذَا حَتَّى
إِذَا فَنِي أَجَلَكَ.. فَنِي رِزْقَكَ .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : (إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ^(١) نَفَثَ فِي رُوعِي^(٢) أَنْ نَفْسًا لَنْ
تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْسِنُوا فِي الطَّلَبِ^(٣))

لَكِنْ أَكْثَرُ مَا يَتَنَافَسُ فِيهِ النَّاسُ وَيَتَكَالَبُونَ عَلَيْهِ لَيْسَ الرِّزْقُ الْقَوَامُ، وَإِنَّمَا
مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوَسُّعَاتِ فِي الْمَظَاهِيرِ وَالصُّوَرِ وَالتَّفَاخُرِ بِالْفَنَائِيَّاتِ، وَلَوْ
أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ طَلَبَ الرِّزْقَ الْقَوَامَ وَاكْتَفَى بِهِ لَمَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْحُرُوبَ الَّتِي نَرَاهَا الْيَوْمَ

(١) رُوحُ الْقُدُسِ : جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) الرُّوعُ : الْقَلْبُ أَوْ الْعَقْلُ .

(٣) أَخْرَجَهُ الشَّهَابُ الْقِضَاعِيُّ فِي مَسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (٢/ ١٨٥ / ١١٥١) النَّاشِرُ : مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ بِيَرُوتَ

في اليمَن والشَّام وليبيا والعِراق وغيرها من بلدان العَالَم، لكن عندهم أطاعُ ما بين متعِ الدُّنيا وما بين سُلطتها وحُكمها، يتقاتلون عليها، فعرضوا أنفسهم لِضِياعِ الدُّنيا والدينِ والآخِرَةِ.

والعجيبُ أنَّ أحدهم يطمعُ في شيءٍ من الدنيا فيبيعُ دينه من أجله ثم لا يجدُ ذلك، أمّا من يرجو الله ويطمعُ فيه ويصدقُ معه فلا يخيبُ أبداً، بل ينالُ ما يرجو وفوقَ ما يرجو ويأملُ ويطلبُ فهكذا مُعاملةُ الله للعبيد .

وما دام أنَّ الرزقَ القُوامَ في الكتابِ العزيزِ مضمونٌ فأمامَ هذا الضَّمانِ يجرُمُ القَلَقُ والشُّكُّ والارتباكُ على الجميع، ويجرُمُ الاستعجالُ بطلبِ الرِّزْقِ برِّباً أو سِرقةً أو غشٍّ أو أيِّ شيءٍ مما حرَّم الله.

ويجرُمُ أيضاً على القادرِ المتفرِّغِ الذي جعلَ الله في حوزته ودائرته من أوجبَ عليه نفقتهم أن يتخلَّى عن الكسبِ الحلالِ فيُضيِّعَ أولاده وأسرته.

وإذا قامَ واجتهدَ فسيسخرُ اللهُ رزقهم القُوامَ تماماً على يده من دونِ أن ينقصَ شيءٌ منه في أيِّ ظرفٍ وفي أيِّ بلدٍ وفي أيِّ زمنٍ. ويبقى بعد ذلك جوازُ ما كان من الزيادة على قدرِ الواجبِ من غيرِ مكاثرةٍ ولا مُفاخرةٍ ولا مُباهاةٍ.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يخشى على قلوب كثيرٍ من هذه الأمَّة أن تُغرَّ وتُخدَع فتقعَ في هذه المهلكة، فقد جاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَابْشُرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَإِنَّهُ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا

أَهْلَكَتَهُمْ^(١)»

يقول لنا : أخشى عليكم الانطلاقة التي انطلقت بها الأمم السابقة الكافرة في التكالب على الدنيا والتنافس عليها، ودوّل الكُفْرِ القائمة أيضًا في زماننا، الذين لا يُبالون باجتياح البلدان وأخذ ثروات الأراضي لغيرهم، فهذا تنافسٌ خبيثٌ، حذرنا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. لكن اتّقوا الله واصلدقوا معه وسيُسخرها لكم ولا تنافسوها بهذا الوجه من التنافس القبيح، الذي لا يُبالي فيه بالكذب ولا بالغش ولا بانتهاك حُرّمات الأعراض والأموال والأنفس والدماء، والعياذُ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فانظر كيف يحومُ النَّاسُ حول شأنِ هذا الرِّزْقِ الذي فُتِنَ به الخلقُ، وانظر ما وَعَدَ الله به المؤمنَ بأن يرزقه من حيث لا يحتسب إذا اتقى، وجرَمَ بإعطائه ذلك قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]

ولكن هذه التسخيرات والتيسيرات للرِّزْقِ القوام وما بعده من الوَسْطِ الذي أحبه الله ورسوله المذكور في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] إنما تأتي بعد القُنُوعِ والصَّبْرِ، فإذا رأى الله منه ذلك يسر له وسخر له الرِّزْقِ القوام وما دنا منه إلى حدٍّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمرو بن عوف ، باب الجزية (٤/ ٩٧ / ٣١٥٨) دار طوق النجاة

الوسط بلا تبذير، ومن لم يبرز منه ما يراه الله في قلبه وظاهره من علامة الصدق معه في القناعة والرضا والعفاف والصبر فلا يفتح له باب التيسير.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ التَّوَسُّطِ وَالْكَفَافِ (لا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ^(١))
أي لا تتعرض للمسائلة والعذاب على كفافٍ من الرزق الحلال، لكن ما زاد على ذلك تكون فيه المسائلة والعذاب.

وقد كان بعض العقلاء والحكماء يقول لبعض الأخيار من التجار: يا فلان رتب لنفسك وأهلك في غداك وعشائكم وفطوركم ونفقتكم في البيت شيئاً وسطاً فلا تبذر ولا تقتر، فإذا قمت بهذا فيستمر معك ذلك إلى أن تموت، وحاشا الله أن يُقَصَّ عليك شيئاً من هذا، لكن إن بذرت أو قترت فأمرك لك.

لهذا لما رأى سيدنا عمر بن الخطاب ولده يأكل اللحم مع إدام آخر علاه بالدرة وقال له: ويحك يا ابن عمر، كل يوماً خبزاً ولحماً، ويوماً خبزاً ولبناً، ويوماً خبزاً وسمناً، ويوماً خبزاً وزيتاً، ويوماً خبزاً وملحاً، ويوماً خبزاً قفاراً.

وهذا سيد الوجود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يجد فطوره ولا عشاءه في اليوم الذي وزع فيه مال البحرين الكثير، وكان يأكل ما وجد ويلبس ما وجد.

أما أهل المفاخرة والمباهاة فخرجوا عن حد الوسط والاعتدال، وما عرفوا قدر الدنيا، ولا علموا أن النعيم مقبل لكل متقٍ بما لا عين رأت ولا أذن سمعت

(١) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي أمامة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، (٣/٧١٨/١٠٣٦)
الناشر: دار إحياء التراث العربي، وكمال الحديث «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُنْسِكَ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»

ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ.

وهذا الضَّمانُ للرِّزْقِ القَوامِ .. أين نجده؟ قال :

(في الكتابِ المُنزَلِ) : وهو القرآن الكريم، أنزله الله نُوراً لِلْعِبَادِ، فالحمدُ لله على ذلك، فاستنر به وثق بها قال الله في كتابه، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].
وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فهذا ضمانٌ من الله عزَّ وجلَّ، فهل تثق به، أم أنك تنتظر أن يُقنن لك أهلُ الاتجاهاتِ ومن يُسمون أنفسهم بضنَّاعِ القرارِ هناك وهناك، وهم تحت حُكمِهِ جَلَّ جلالُهُ؟

جاء في الحديثِ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ تَكَفَّلَ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقِهِ^(١)).

قال العارِفونَ والمحقِّقونَ : إنَّ هذا زيادةٌ في الضَّمانِ بتيسيرِ أكثرِ من ضمانِ الرِّزْقِ القَوامِ العامِ لكلِّ دابةٍ على ظهرِ الأرضِ، فينالُ طالبُ العلمِ تيسيراً زائداً بسببِ تفرُّغِهِ للعلمِ مهما أخلصَ النِّيَّةَ وصَدَقَ مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
وقال الإمامُ الحَدَّادُ : هَذَا تَكْفُلٌ خَاصٌّ غَيْرِ التَّكْفُلِ العامِ الذي تَكْفُلُ بِهِ

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن زياد الصدائي (٤١/ ٢٣٢ / ٨٢٥١) الناشر: دار الفكر للطباعة . وأخرجه الخطيب (٣/ ١٨٠) والقضاعي (١/ ٢٤٤، رقم ٣٩١).

لِكُلِّ دَابَّةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

(في الكتاب المنزل نُورًا لِلْأَنَامِ) : نُورًا لَكَ فِي إِيْمَانِكَ وَفِي يَقِينِكَ وَفِي عَمَلِكَ وَفِي مُعَامَلَتِكَ .

فَمَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فَلَا شِفَاءُ لَهُ « [وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ^(١)] ، [وَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ^(٢) قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ^(٣)] ».

فَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ بِالْقُرْآنِ، وَيَكُونَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، فَلَا أَقْوَى مِنَ الْأَسْبَابِ فِي تَحْصِيلِ الْيَقِينِ مِنْ حُسْنِ الْإِصْغَاءِ وَالِاسْتِمَاعِ لِكَلَامِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خُصُوصًا فِيَمَا يَتَعَلَّقُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ، وَمَا حَلَّ بِمُعَانِدِيهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ عُقُوبَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ وَتَكَرِّرْهُ وَتَرْدِيدُ النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ اكْتِسَابِ الْيَقِينِ، وَالْيَقِينُ أَشْرَفُ مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَحُسْنُ الْيَقِينِ أَعْلَى الْكَرَامَاتِ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا مَنْ شَاءَ، وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِهِ الثَّلَاثِ؛ عِلْمُ الْيَقِينِ وَعَيْنُ الْيَقِينِ وَحَقُّ الْيَقِينِ دَرَجَاتٌ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ أَنَّ فَوْقَ مَرْتَبَةِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦/٢٢/٥) الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت وأخرجه الدارمي (٣٣٧٤/٢٠٩٨/٤). وابن أبي شيبة (٣٠٠٠٧/١٢٥/٦).

(٢) هكذا في رواية ابن حبان، وجاء في بعض الروايات: وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، عن جابر، باب ذكر البيان بأن القرآن من جعله أَمَامَهُ (١٢٤/٣٣١/١) الناشر:

مؤسسة الرسالة ، وجاء في معجم الكبير للطبراني بلفظ (أَمَامَهُ) بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ (١٠٤٥٠/١٩٨/١٠)

حَقُّ اليَقِينِ مرتبةٌ حَقِيقَةُ اليَقِينِ، لكن ليس فيها مِنَ الخَلَاتِقِ إِلَّا وَاحِدٌ وهو حَبِيبُ
الوَاحِدِ المَاجِدِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٍ جَامِعِ المَحَامِدِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال الإمامُ الحَدَّادُ :

عَلَيْكَ بِتَحْسِينِ اليَقِينِ فَإِنَّهُ إِذَا تَمَّ صَارَ الغَيْبُ عَيْنًا بَلَا نُكْرٍ
قال البخاري في مُقَدِّمَةِ صحيحه: قال ابن مَسْعُودٍ: (اليَقِينُ الإِيْمَانُ كُلُّهُ^(١))
فجميعُ شُؤْنِ الإِيْمَانِ تَنَدَرُّجٌ فِي اليَقِينِ .

وَإِذَا قَوِيَ الإِيْمَانُ وَرَسَخَ وَاسْتَوَى عَلَى القَلْبِ سُمِّيَ يَقِينًا، وَأَوَّلُ درَجَاتِهِ
عِلْمُ اليَقِينِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى عَيْنِ اليَقِينِ، وَالأَنْبِيَاءُ وَكُمِّلَ وَرَثَتُهُمْ فِي حَقِّ اليَقِينِ.
وقد انتهى سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الذَّرْوَةِ فِي
اليَقِينِ، وَمِمَّا جَاءَ عَنْهُمَا : لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا.

يَقُولُ سَيِّدُنَا الإمامُ الحَدَّادُ : إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ ضَمَّنَ لَكَ بِالرِّزْقِ القَوَامَ
فِي كِتَابِهِ المَبِينِ ..

(فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ) : يَجِبُ عَلَيْنَا الرِّضَا بِمَا قَدَّرَ وَقَسَمَ لَنَا مِنَ الأَرْزَاقِ،
وَيَجِبُ عَلَيْنَا فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ أَنْ نَطْلُبَ الرِّزْقَ مِنْ حَلِّهِ، وَأَنْ نَصْرِفَهُ فِي مَحَلِّهِ، وَأَنْ
نَطْلُبَ الزِّيَادَةَ مِمَّا حَبَّبَ إِلَيْنَا طَلَبَ الزِّيَادَةِ مِنْهُ؛ مِنَ العِلْمِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَنَسْعَى
لِذَلِكَ جُهْدَنَا، وَبِذَلِكَ نُحَقِّقُ عُبُودِيَّتَنَا لِلَّهِ يَتَوَلَّى مَنْ قَامَ لَهُ بِالعُبُودِيَّةِ بِرُبُوبِيَّتِهِ
السَّيِّئَةِ.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود، (٢/ ٤٨٤ / ٣٦٦٦) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

وَإِذَا تَوَلَّتِ الرَّبُوبِيَّةُ الْعُبُودِيَّةَ تَلَاشَتْ الْعُبُودِيَّةُ فِي الرَّبُوبِيَّةِ، وَتَلَاشَتْ الْعَبْدِيَّةُ فِي الْعِنْدِيَّةِ، وَصَارَ الْعَبْدُ مَحَلَّ نَظَرٍ مِنَ الْعَلِيِّ الْأَكْبَرِ فِيمَا بَطَنَ وَفِيمَا ظَهَرَ، مَنْسُوبٌ بِالنِّسْبَةِ الْإِضَافِيَّةِ التَّشْرِيفِيَّةِ إِلَى اللَّهِ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ فِي حَدِيثٍ (كُنْتُ سَمِعُهُ وَكُنْتُ بَصَرُهُ^(١)) وَحَدِيثٍ (فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ^(٢)) وَهَذَا هُوَ الْعَطَاءُ الْأَكْبَرُ الْأَفْخَمُ، الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُعْظَّمَهُ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُ طَمَعًا فِي الدُّنْيَا يَقْطَعُهُ عَنْ طَمَعِهِ فِي نَيْلِ هَذَا الْأَمْرِ الرَّفِيعِ الْعَلِيِّ، وَمَوَالَاةِ أَهْلِهِ .

ثَبَّتَ اللَّهُ قُلُوبَنَا عَلَى ذَلِكَ.

فَلْتَرَضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ فِي الْأُمُورِ الْحَسِّيَّةِ، ثُمَّ لَا يَنْصَرِفْ هُمُكَ إِلَى زِيَادَةِ عَلَى قَدْرِ الْكَفَافِ إِلَّا مَا صَدَقَتْ فِيهِ نَيْتُكَ مِنَ الْإِحْسَانِ - عِنْدَ قِيَامِ الدَّوَاعِي مَعَ صِحَّةِ الْبَوَاعِثِ، وَعَدَمِ الْإِنْشَاغَالِ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ - إِنْ كَانَ أَقَامَكَ فِيمَنْ أَقَامَهُمْ فِي السَّعْيِ لِعِبَادِهِ، وَالْعَمَلِ لِحَاجَاتِ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقِيمُ فِي هَذَا مَنْ شَاءَ مِنَ الْبَرِيَّةِ، فَيَكُونُ سَعْيُهُمْ مُبَارَكًا عَلَيْهِمْ، تَصَدَّقُ فِيهِ نِيَّاتُهُمْ وَمَقَاصِدُهُمْ وَلَا يَنْقُطِعُونَ بِهِ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ وَلَا أَوْلَى بِهِمْ فِي أَحْوَالِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ.

(١) أخرجه الإمام البخاري باب التواضع (٨/ ١٠٥ / ٦٥٠٢) ولفظه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ أَسْتَعَاذَنِي لِأَعِيزَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"

(٢) ذكره الإمام الحكيمة الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الأصل الثاني والستون والمائة في صفة الأولياء وحقيقة الولاية أو التحذير من إهانتهم (١/ ٢٣٦).

وينبغي أن يكون ذلك الطلب بتحرر من حيث الظاهر، مع سؤال الله أن لا يُعَذِّبَهُ عليه؛ بالوقوع في الشُّبُهَاتِ أو الشَّهَوَاتِ، أو بإقامة العدل عليه في الآخرة، وكان من أدعية بعض أكابر أهل البيت المطهر في القرون الأولى: اللهم إني أسألك صحةً في تقوى، وطولَ عمرٍ في حُسنِ عملٍ، ورزقاً واسعاً لا تُعَذِّبُنِي عليه.

أما في الأرزاق المعنوية فقد أحبَّ الله منّا مع الرِّضا طلبَ الزيادة من غير غايةٍ يُنتهى إليها، والعمل على ذلك بكلِّ المستطاع، وأعلى رزقٍ في ذلك الرزق المعنوي.. رزق اليقين؛ الذي في داخله وشؤونُه المعرفةُ الخاصَّةُ، والمحبةُ الخالصةُ، وهي رأسٌ في عظيم الأرزاق المعنوية؛ المحبةُ منه والمحبةُ له، وعنهما ينتج كمال الرِّضا، والذي هو فريضةٌ لأهل كلِّ مرتبةٍ بما يليقُ بهم؛ ففرَضَ على مَنْ كان أقربُ ومعرفةً أرحبُ نصيبٌ من الرِّضا، لا يجبُ على مَنْ كان دونه ممن يُحِبُّ، وكلِّما ازداد معرفةً وجبَ عليه أن يزداد رِضا.

والرِّضا أعلى ما يُنعمُ به على العبدِ من الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

إلا أن نصيبَ العبدِ من رضوانِ ربِّه عنه مَقْرُوءٌ ومُشَاهَدٌ ومُسْتَجَلٍ في رِضا العبدِ عن ربِّه جَلَّ جَلَالُهُ، وكلما توفَّرَ نصيبُهُ من رِضا عن ربِّه توفَّرَ حظُّه من رِضا ربِّه عنه، بما لا يُكَيِّفُ، وما يَجُلُّ عن الوصفِ.

ومهما رَضِيَ العبدُ فعندهُ في الرِّضا غاياتٍ عَظِيمَاتٍ إلا أنَّ هذه الغاياتِ إذا نُسِبَتْ إلى رِضا ربِّ البرياتِ تضاءَلَتْ، فالرِّضا من العبدِ مما عِنْدَ العبدِ، قابلٌ

للفناد في أصله؛ لكن الرضا من الله مما عند الله لا ينفد، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]

وهذه ميزة عظيمة وفارق بين الأمرين، فما أحسن متاجرة الذي يقبل منك الفاني ويعطيك الباقي، ويقبل منك القليل ويعطيك الكثير، ويقبل منك الصغير ويهبك الكبير قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُجِيرُكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِكُمْ ۖ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتُفْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢]

ثم إن هذا الرضا يتسع باتساع العلو في المعرفة بالله تعالى، والمحبة له قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١) فيُخرجه بعد ذلك عن دائرة المحبة بسخطه على أقداره - نعوذ بالله من ذلك -

قال أحبُّ المحبوبين، وأقربُ المقرَّبين إلى الله بعد أن رُمي بالحجارة في الطائِفِ وخرج منها، وكان لا يستطيع الدُّخُولَ إلى مَكَّةَ إلا بإجارة أحدٍ من أهل هذه المظاهر التي أقامها الله في عالمِ الحسِّ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناسِ يا ربَّ العالمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي، إلى من تكلني؟؛ إلى عدوٍّ يتجهَّمُنِي، أم إلى قريبٍ ملَكْتَهُ أمري، إن لم يكن بك عليَّ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨ / ٤٠٣١) الناشر: دار إحياء الكتب العربية .

غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي؛ وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي»^(١).

وكان من شريف خطابِ الله له برضوانه الأكبر أن قال للملكِ المؤكَّلِ بالجبال: سلِّم عليه، وادنُ منه، وحكِّمهُ في أمرِ الجبالِ التي حوَالِي مَكَّة؛ فإن شاء أن تُطَبِّقَهَا عليهم فأطَبِّقْهَا، ولما كَلَّمَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ، قال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٢) فقال له الملك: صَدَقَ مَنْ سَمَّاكَ الرَّؤُوفَ الرَّحِيمَ صلوات ربي وسلامه عليه.

(فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ) : الرِّضَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ بِحُسْنِ الْعَمَلِ وَالِامْتِثَالِ وَالتَّطْبِيقِ؛ فَرَحًا وَطُمَأْنِينَةً وَاسْتَبْشَارًا، فَيُعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَيُعْطَى الصَّدَقَةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ طَيِّبَةً بِالصَّوْمِ نَفْسُهُ، وَيَقُومُ لَيْلَةَ طَيِّبَةً بِالْقِيَامِ نَفْسُهُ.

وَكَذَلِكَ الرِّضَا بِالْأَقْصِيَّةِ وَالْأَقْدَارِ؛ فِيمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ الْكَرِيمُ الْغَفَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ؛ وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَجَالِ تَحْقِيقِ أَوْ مَعْرِفَةِ رِضَا الْحَقِّ عَنِ الْعَبْدِ.

قال الإمام الحداد :

وَكُنْ رَاضٍ بِمَا قَدَّرَ الْمَوْلَى وَدَبَّرْ

وَلَا تَسْخَطْ قَضَا الله رَبِّ الْعَرْشِ الْأَكْبَرِ

(فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ) فَكَيْفَ لَا تَرْضَى عَنْهُ وَهُوَ الْمُنْعَمُ عَلَيْكَ، وَالْمُتَفَضِّلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُتَطَوِّلُ، وَالسَّتَارُ؛ الَّذِي سَتَرَ مَعَايِبَكَ وَقَبَائِحَكَ، وَذَمِيمَ صِفَاتِكَ،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن جعفر (١٣/ ٧٣/ ١٨١) دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة، باب إذا قال أحدكم آمين (٤/ ١١٥/ ٣٢٣١) الناشر: دار طوق النجاة

وأظهرَ محاسنَ جُوده فيكَ وفي أحوالِكَ، وجعلَكَ في خيرِ أُمَّةٍ، وربَّطَكَ بِنبيِّكَ
محمَّدٍ، وأحضرَكَ محاضرَ الخيرِ؟

كيف لا تَرْضَى عَنْهُ وهو الذي يَدْفَعُ عَنْكَ في كُلِّ لَمَحَةٍ ونَفْسٍ ما لا تُحِيطُ بِهِ؟
فأَذُنُكَ وَسَمْعُكَ عُرْضَةٌ لِأَنْ تُصَابَ بأنواعِ الإصاباتِ في أيِّ وقتٍ، وعَيْنُكَ
وَبَصَرُكَ عُرْضَةٌ لِأَنْ يُصَابَ بأنواعِ الإصاباتِ في أيِّ لحظةٍ، وكلُّ هذا مصروفٌ
عَنْكَ بِصَرْفِهِ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ، ولولا صَرْفُهُ ما قَدَرْتَ أَنْتَ ولا غيرُكَ على صَرْفِهَا
عَنْكَ.

وكم من آفاتٍ صَرَفَهَا عَنْ لِسَانِكَ، وَعَنْ جِهَازِكَ التَّنَفُّسِيِّ وعن كُلِّ أَجْزَاءِ
جِسْمِكَ كانَ يَقْدِرُ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَيْهَا، ولو ابتلاك بواحدٍ مِنْهَا لكانَ الأمرُ غيرَ هذا
الحالِ الذي أَنْتَ فيه.

وكم عَدَدُ الهوامِ والحَيَّاتِ وأنواعِ الحَشَرَاتِ المَصْرُوفَةِ عَنْكَ، ولو سَلَّطَ
عليكَ واحداً مِنْهَا لتكدرَ صَفْوُكَ أَيَّاماً، وَلَرُبَّما تَعَرَّضْتَ لِلْمَوْتِ والهلاكِ.

وكم على ظَهْرِ الأرضِ مِنْ شياطينِ الجنِّ والإنسِ لو سَلَّطَهُمْ عَلَيْكَ لكانَ
الأمرُ صعباً .. قَالَ اللهُ تَعَالَى مُذَكِّراً أَصْحَابَ نَبِيِّهِ بِذَلِكَ : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَّاطَهُمْ

عَلَيْكُمْ فَلَقَتُلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]

لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَارِفُ عَنْكَ كُلِّ ذَلِكَ، ومع ذلك يَسْتُرُكَ وَيَفْتَحُ لَكَ
بَابَ التَّوْبَةِ. فكيف لا تَرْضَى عَنْهُ؟

وقد عانى الحبيبُ مُحَمَّدٌ بن عبد الله الهدَّارِ في آخِرِ حَيَاتِهِ أمراضاً كثيرةً،

واشتدَّ عليه بعضُها في آخرِ أيَّامِهِ، وكان مما عاناه مَرَضٌ في الرِّثَّةِ قال لَهُ أَحَدُ
الأطباءِ المتخصِّصينَ : أَنْ غَايَتَهُ في الحَيَاةِ أَنْ يَعِيشَ مَعَ هَذَا المَرَضِ عَشْرِينَ يَوْمًا،
فَعَاشَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً، وَقَدْ اتَّصَلَ بِالْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ الشَّاطِرِي فِي آخِرِ أَيَّامِهِ بَعْدَ
خُرُوجِهِ مِنَ المَسْتَشْفَى يَقُولُ لَهُ : أُشْهِدُكَ بِأَنِّي رَاضِي .. رَاضِي .. رَاضِي عَنْ رَبِّي .
فَيَجِبُ أَنْ تَرْضَى بِمَا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى لَكَ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَعَدَمُ الرِّضَا
جَلَبَ السُّخْطَ مِنَ اللهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الخَلْقِ .

قَالَ بَعْضُ العَارِفِينَ الصَّالِحِينَ لِتَائِبٍ مِنْ سَرِقَةِ أَكْفَانِ المَوْتَى : كَمْ نَبَشَتْ
مِنَ القُبُورِ؟ قَالَ : كَثِيرٌ، لَكِنْ وَجَدْتُ أَكْثَرَهُمْ مُسْتَدْبِرِينَ القِبْلَةَ، فَقَالَ لَهُ : أَتَدْرِي
لَمْ يُفْعَلْ بِهِمْ هَكَذَا؟ قَالَ : لَا، فَقَالَ هَذَا العَارِفُ : يُفْعَلُ بِهِمْ هَكَذَا لِشَكِّهِمْ فِي
الرِّزْقِ؛ يَعِيشُونَ مَعَ اللهِ شَاكِّينَ فِي الرِّزْقِ غَيْرَ مَطْمَئِنِّينَ وَغَيْرَ رَاضِينَ .
فَلِذَا يَقُولُونَ : الشُّكُّ فِي الرِّزْقِ شُكٌّ فِي الرِّزَاقِ، جَلَّ جَلَالُهُ .

فَإِذَا كُنْتَ تَرِيدُ رِضَاءَهُ الأَكْبَرَ فَارْضَ عَنْهُ فِيمَا قَسَمَ لَكَ وَفِيمَا أَعْطَاكَ وَفِيمَا
فَرَضَ عَلَيْكَ، أَمَا السُّخْطُ عَلَيْهِ فَحَرَامٌ .

فَلَا تَسْتَهِنْ بِالْقَلِيلِ وَلَا تَسْتَخِفَّ بِالْيَسِيرِ .

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ وَقَدْ رَأَى كِسْرَةً مُلْقَاةً عَلَى الأَرْضِ فَمَشَى إِلَيْهَا
وَأَخَذَهَا ثُمَّ مَسَحَهَا فَأَكَلَهَا : " يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ اللهِ فَإِنَّهَا قَلٌّ مَا نَفَرَتْ

مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ^(١)

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي في الطريق يوماً فرأى تمرة فأخذها وقال :
«لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»^(٢) ثم أعطاها لمن يأكلها، وقد كان
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْظِمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ.

ولهذا قال سيّدنا الشيخ أبو بكر بن سالم : لو لم نَشْكُرْ على القليلِ ما جاءنا
الكثيرُ .

فالحمدُ لله على نِعَمِهِ .

ونحن اليوم من ممّا لا يجدُ غداءه أو عشاءه؟ ربّما القليل من المسلمين ينزل
بهم شيء من هذا والنّاس في غفلة عنهم، لكن عامتنا على غير ذلك، وقد كان
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْسِلُ الجيشَ وزاده جراب من التمر، فكان يُعطى لكل واحد في
اليوم ثلاث تمرات، ثم تمرتين، ثم تمرة واحدة يأكلها ويشرب معها الماء، حتى
سألوهم : ما تُغني عنكم تمرة؟ قالوا : وَجَدْنَا أَثَرَهَا حِينَ فَقَدْنَاهَا، ثم أَرْسَلَ اللهُ
لهم حوتاً كبيراً من البحر فأكلوا منه ثمانية عشر يوماً^(٣) حتى سَمِنُوا، فانظر كيف

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة، باب تعديد نعم الله عز وجل (٦/٣٠٧/٤٢٣٧) الناشر: مكتبة
الرشد للنشر والتوزيع .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، باب إذا وجد تمرة في الطريق (٣/١٢٥/٢٤٣١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله، باب حمل الزاد على الرقاب (٤/٥٥/٢٩٨٣) الناشر : دار
طوق النجاة بلفظ «خَرَجْنَا وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا، فَفَنِي زَادُنَا حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا يَأْكُلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ
تَمْرَةً»، قَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَأَيْنَ كَانَتِ التَّمْرَةُ تَقَعُ مِنَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَقَدْنَاهَا، حَتَّى أَتَيْنَا
الْبَحْرَ، فَإِذَا حُوتٌ قَدْ قَذَفَهُ الْبَحْرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْماً مَا أَحْبَبْنَا»

أرسلهم رسول الله وزادهم جراب تمر.

لكن في هذا الزمن اختلفت الأفكار كثيراً، فصارت تُشبه أفكار الدجال الذي يلعب على الناس بمظاهر الطعام والشراب والرزق عند خروجه. أعاذنا الله من شره.

فإن أردت الراحة فاقنع بما تيسر لك تصبح ملكاً، قال الله لقوم موسى ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] كيف جعلهم ملوكاً؟

إذا وجد الواحد قوت يومه وليلته، وعنده مسكن يسكن فيه، وزوجة يأوي إليها، وخادم يخدمه اعتبر ملكاً.

قال سيّدنا الشافعي: وإنما الغنى عن الشيء لا به. وقال صلى الله عليه وسلم في بيان هذا المعنى: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس^(١)).

والغنى الحقيقي إنما يكون بالله.

فاستغن بالله تكن ذا غنى مُغْتَبِطاً بِالصَّفَقَةِ الرَّابِحَةِ

نسأل الله أن يرزقنا الإيمان واليقين، ويرزقنا التنافس الطيب الشريف، وأشرف ما يكون من تنافس المكلفين على ظهر الأرض أن يتطلّبوا الوصول إلى دار النعيم والشرب من الرحيق المختوم الذي ختامه مسك، ومزاجه من التسليم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب الغنى غنى النفس (٨/ ٩٥ / ٦٤٤٦) الناشر: دار طوق النجاة

فهؤلاء الأشرافُ، وأشرَفُ هؤلاء الأشرافِ مَنْ تمتدُّ آمالُهُم إلى الكَرَعِ مِنَ التَّسْنِيمِ
الذي يُمزَجُ منه هذا الشرابُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿ خِتَمُهُ مِسْكًَ
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ ﴿ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾
[المطففين: ٢٢ - ٢٨]

فالأبرارُ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ مُغَطًى وَمَخْتُومٍ بِالْمِسْكِ لَكِنْ مِزَاجُ هَذَا
الشرابِ الذي تَكْمُلُ بِهِ حَلَاوَتُهُ وَتَعْظُمُ بِهِ صَفَوْتُهُ (مِنْ تَسْنِيمٍ) .

وما تسنيم؟

قال : ﴿ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ مُبَاشَرَةً، فللمقربين شرابُ التسنيم
ولغيرهم مَزِيجٌ مِنْهُ .

هذا ما دعانا الله إلى التنافس فيه، أما أهل الدنيا فيصيحون علينا ليلَ نهارٍ
لِلتَّنَافَسِ فِي الْمَظَاهِرِ، وَالْوِظَائِفِ، وَالسِّيَاسَةِ .

وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ .. وَقَدْ دَخَلْتَ مَدَارِسَ كَثِيرَةً وَحَضَرْتَ
مَحَاضِرَ كَثِيرَةً هَلْ وَجَدْتَ فِيهَا مَنْ دَعَاكَ وَحَامَ حَوْلَ عَقْلِكَ لِيَصْرِفَ وَجْهَكَ
لِلتَّنَافَسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْأَشْرَفِ؟

ما هذا الموتُ فِي الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ وَالْأَفْكَارِ، وما هذا الانحطاط
والاستجابة إلى دَعْوَةِ إبْلِيسَ وَجُنْدِهِ؟

على ماذا يتنافسون؟ والرحمنُ يقولُ لهم : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

وقد قال الله لنا في الآية الأخرى بعد ذكر مصير الذي كان يضحك ويستهزئ على المؤمنين: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ ٥٣ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ٥٤ فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٠ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ٦١﴾ [الصافات: ٥٠ - ٦١]

فيجب أن تنصرف أفكار المؤمنين للعمل بما يُثمر هذا الفوز العظيم.
(فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ): رَزَقَنَا اللهُ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ عَلَى مَا يُحِبُّ، وَمَكَّنَنَا فِي الرِّضَا، وَأَكْرَمَنَا مِنْهُ بِالرِّضَا، الَّذِي يَزِدُّهُ فِي كُلِّ لَمَحَةٍ وَنَفْسٍ أَبَدًا سَرْمَدًا بِلَا انْقِطَاعٍ، اللَّهُمَّ آمِينَ، وَجَعَلْنَا مِنْ أَسْعَدِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَمَاعِ نِدَائِهِ فِي الْجَنَّاتِ: «الْيَوْمَ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُكْرِمَنَا بِنَصِيبٍ وَافِرٍ مَّا جَعَلَ لَخَوَاصِّ عِبَادِهِ مِنْ مِّنَادَاتِهِ لَهُمْ بِكَرِيمِ الرِّضَا، وَالْخِصَائِصِ فِي مَعَانِيهِ الْعُلَا آمِينَ اللَّهُمَّ آمِينَ .
وَلَوْ سَعَيْتَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاهَا مَشِيًّا عَلَى رَأْسِكَ إِلَى مَجْمَعٍ يُنَادِي الْحَقُّ فِيهِ وَيُسْأَلُ، وَيُدْعَى بِهَذَا الدُّعَاءِ لَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلًا فِي حَقِّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ.
نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَنَا وَيَسْتَجِيبَ لَنَا وَيُكْرِمَنَا بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

(فَالرِّضَا فَرِيضَةٌ وَالسَّخَطُ حَرَامٌ) السَّخَطُ: التَّبَرُّمُ وَالْجَزَعُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَلَا تَجَزَعُ وَلَا تَتَبَرَّمُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ فَإِنَّ مَجَارِيَ الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ تُعَلِّمُكَ -

حتى في حدود مدارِكك أنتَ في العالم الحسي - أنَّ في كثيرٍ مما تعتقدهُ خيرًا لك شرًّا لك، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

يقول الإمام الحداد :

ألا يا صاحٍ يا صاحٍ لا تجزع وتضجر وسلِّم للمقادير كي تُحمد وتُوجر
وكن راضٍ بما قدَّر المولى ودبر ولا تسخط قضا الله ربَّ العرش الأكبر
وكن صابر وشاكر تكن فائز وظافر ومن أهل السرائر
رجال الله من كلِّ ذي قلبٍ منور مصفى عن جميع الدنس طيب مطهر
ويقول في قصيدة أخرى وقد جاءت له أخبارٌ من الهند بوفاة كثيرٍ من أهل
ودادِهِ في أوقاتٍ متقاربةٍ مطلعها :

مرت لنا بالحِمى المانوس أعيادُ مع الأحيّة لو عادت ولو عادوا
كنا قضينا بها الأوطار في دعة وطيب عيشٍ فما كادت وما كادوا
يقول في آخرها :

وقد رَضينا قضاء الله كيف قضا واللفظ نرجو وحسن الصبر إرشادُ
(والقنوع راحة) : القنوع راحةٌ معجلةٌ في الدنيا وثوابٌ مُوجِّلٌ في الآخرة؛
وهو يستجلبُ لك السُرورَ والأنسَ والخبورَ، فكم ممَّن مضى قبلنا وفي زماننا كانَ
متاعهم قليلًا وفيهم من يجوع أحيانًا ومن لا يجدُ عشاءَهُ أو غداءَهُ، لكن كانَ
هناؤهم وسرورهم وطمانيتهم وفرحهم الباطنُ، وزهو نفوسهم واستبشارهم

وانشراحهم لا يجد منه ملوك الأرض وأرباب الثروات الكبيرة عشر العشر. هذا في الدنيا وستأتي الآخرة وينكشف ما لهؤلاء وما لهؤلاء .

(والطمع جنون) : لأنه مغالبة لما لا يغلب، ومحاولة لما لا يمكن، فهو يريد ما ليس له ولا يقدر عليه، وهذا نوع من أنواع الجنون .

وقد جعل الله لنا أمثلة في عالم الحس في القناعة والطمع، ففي طبع العنكبوت معنى من القناعة، وفي طبع الذباب معنى من الطمع، فتجد الذباب لا يتوقف عن الحركة، ويذهب هنا وهناك باحثاً عن أي شيء يأكله، بينما العنكبوت تنصب شباكها وتنتظر رزقها، فيأتي هذا الطامع ويقع في شباك هذا القانع، فتسج عليه خيوطها وتنتهي حياته وطمعه.

يقول الإمام الحداد :

وإياك والأطماع إن قرينها ذليل خسيس القصد متضع القدر
والحق سبحانه وتعالى دعا عباده أن يرفعوا أنفسهم عن الطمع في بعضهم البعض، وعن الطمع في المتاع الفاني، إلى الطمع في خزائنه المليئة بالعطاء والفضل، حتى كان بعض الصالحين يقول : فإن لي فيك أطماعاً مثل أطماع أشعب .

يقول الإمام الحداد في ذلك :

إن القناعة كنز ليس بالفاني فاعنم هديت أخي عيشها الهاني
وعش قنوعاً بلا حرص ولا طمع تعش حميداً رفيع القدر والشأن
ليس الغني كثير المال يخزنه لحادث الدهر أو للوارث الشاني

يُجَمِّعُ الْمَالَ مِنْ حُلٍّ وَمِنْ شُبِّهِ وَلَيْسَ يُنْفِقُ فِي بَرٍّ وَإِحْسَانٍ
 شَقِيَ بِأَمْوَالِهِ قَبْلَ الْمَمَاتِ كَمَا يَشْقَى بِهَا بَعْدَهُ فِي عُمْرِهِ الثَّانِي
 إِنْ الْغَنِيِّ غَنِيَ النَّفْسِ قَانِعُهَا مَوْفَرُ الْحِطِّ مِنْ زُهْدٍ وَإِيمَانٍ
 بَرٌّ كَرِيمٌ سَخِيٌّ النَّفْسِ يُنْفِقُ مَا حَوَتْ يَدَاهُ مِنَ الدُّنْيَا بِإِيقَانٍ
 مُنَوَّرُ الْقَلْبِ يَخْشَى اللَّهَ يَعْبُدُهُ وَيَتَّقِيهِ بِإِسْرَارٍ وَإِعْلَانٍ
 مُؤَيَّدٌ رَاسِخٌ فِي الْعِلْمِ مُتَّبِعٌ إِثْرَ الرَّسُولِ بِإِخْلَاصٍ وَإِحْسَانٍ

ويقول الشيخ عُمَرُ بِاخْمَرَةِ بِاللَّهْجَةِ الدَّارِجَةِ الْعَامِيَّةِ :

يَا ضَنِينِي ضَنَا حَالِي وَلَا اطْمَعُ بِحِيلَةٍ حِيلَةُ الْعَبْدِ فِيمَا قَدَّرَ اللَّهُ قَلِيلَةً
 الْآدِمِي مَا يَقَعُ لَهُ غَيْرَ مَا قَدْ قُضِيَ لَهُ لَوْ تَعَبَ مَا تَعَبَ مَا زِيدُوا لَهُ فَتِيلَةً
 ويقول الإمام العَدَنِي :

وَالرِّزْقُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مَقْسُومٌ
 فَلَا تَكُنْ بِهِ يَا بَلِيدُ مَهْمُومٌ
 فِي كُلِّ يَوْمٍ لَكَ نَصِيبٌ مَعْلُومٌ

وجاء في الأثر: (مَا قُدِّرَ لِمَاضِيكَ أَنْ يَمْضَغَاهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَمْضَغَاهُ)؛ فلو
 كَتَبَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَأْكُلَ حَبَّةً وَاحِدَةً مَزْرُوعَةً فِي شَرْقِ الْأَرْضِ أَوْ غَرْبِهَا فَلَا بُدَّ أَنْ
 تَصِلَ إِلَى فَمِكَ، وَلَا يُمَكِّنُ لغيرِكَ أَنْ يَأْكُلَهَا.

يقول تَعَالَى : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رَقْعًا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكَ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿العنكبوت: ٦٠﴾ أي: يرزقكم ويرزق دوابكم أيضًا.

وقد سافر اثنين سعيًا في طلب الرزق ووصلوا إلى سنغافورة، وفتح كل واحد منهما دكانًا، فكانت الناس تأتي إلى عند أحدهم، ولا تأتي إلى الثاني وهما يبيعان نفس البضاعة، فقال الثاني للأول سبتبادل المحل فتبادلا، فتحوّلت الناس إلى دكان الأول وبقي حال الثاني كما هو لا يأتي إليه أحد، ثم اشترى هذا الثاني كمية كبيرة من الحديد فلم يشتره أحد منه حتى كاد أن يفسد، فعرض عليه الأول شراءه منه فباعه عليه، وبعد أيام جاءت شركة واشترت كل الحديد بثمان كبير منه، وكان الثاني حسن الخط فكان يقول: هذا عنده خط وأنا عندي خط، والفرق بينا نقطة واحدة تأخرت عنده وتقدمت عندي.

كل ذلك ليَعْلَمَ الإنسان أن الأمور مقدرة بتقدير من عزيز حكيم، لا بنوع البضاعة ولا بحركة الإنسان ولا بالدعايات التي تُنشر فكلها مجرد أسباب والرازق هو الله، والرزق في أم الكتاب مقسوم.

ومما يروى أن اثنين تحاورا في مسألة الرزق، فكان أحدهم يقول: إن الرزق لا يأتي إلا بالسعي والاجتهاد، والآخر يقول: السعي سبب والرزق يأتي بسبب وبغير سبب والرازق هو الله وحده، فقال الأول للثاني: اقعد محلك وأنا سأسعى وسننظر أين يأتي بالرزق، فخرج هذا يسعى فوجد فاكهة على باب البيت فأخذها ورجع إلى صاحبه، فقال له: انظر، عندما سعت وجدت الرزق، فقال له: ماذا وجدت؟ قال: فاكهة، قال أين هي؟ فرماها إليه، فتناولها وأكلها، ثم قال له:

أَيْنَ الْفَاكِهِةُ؟ فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي أَكَلْتَهَا، فَقَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ ؟ أَنْتَ سَعَيْتَ فِي الرِّزْقِ وَأَنَا الَّذِي أَكَلْتُهُ مِنْ دُونِ سَعْيِي، فَندِمَ هَذَا عَلَى اعْتِقَادِهِ هَذَا وَتَابَ مِنْهُ.

وَمَا يُذَكِّرُ أَنَّ رَجُلًا صَالِحًا جَاءَ إِلَى بَلَدٍ، فَاعْتَكَفَ فِي الْمَسْجِدِ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ خَاطَبَهُ الْإِمَامُ الَّذِي يُصَلِّي بِهِمْ وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَلَا أَرَى لَكَ عَمَلًا فَمِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فَقَالَ لَهُ : هَذَا صَحِيحٌ لَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْكَسْبِ، وَأَخَذَ يُلِحُّ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ جَارَ الْمَسْجِدِ الْيَهُودِيَّ ضَمِنَ لِي كُلَّ يَوْمٍ بَرغيفين. فَقَالَ لَهُ : الْآنَ لَا بَأْسَ، فَقَالَ لَهُ هَذَا الصَّالِحُ، سُبْحَانَ اللَّهِ!! ذَكَرْتُ لَكَ ضِمَانَ اللَّهِ فَمَا اطمَأْنَنْتَ نَفْسُكَ وَلَا وَثِقْتَ بِهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ ضِمَانَ الْيَهُودِيِّ فَقُلْتَ : لَا بَأْسَ، أَتَكُونُ ضِمَانَهُ الْيَهُودِي الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ يُغَيِّرَ رَأْيَهُ أَوْ يَتَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ ضِمَانَةِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَقَدْ أَنْزَلَ ذَلِكَ فِي قُرْآنِهِ.

أَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّكَ بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ هَكَذَا مَا صَلَّيْتُ خَلْفَكَ، وَأَنَا الْآنَ سَأَقْضِي كُلَّ صَلَوَاتِي الَّتِي صَلَّيْتُهَا خَلْفَكَ، وَسَأُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ آخَرَ حَتَّى تَتُوبَ مِنْ هَذَا الْإِعْتِقَادِ .

ولذا قالوا :

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ
أَنْتَ لَا تُدْرِكُهُ مُتَبِعًا فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكَ

أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ * كُلُّهُمْ عَيْدٌ وَإِلَيْهِ فِينَا * يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
هَمُّكَ وَاعْتِمَاؤُكَ * وَيَحْكُ مَا يُفِيدُ الْقَضَا تَقَدَّمَ * فَاعْنَمِ السُّكُونَ
لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَيْدٌ) : لِوَاحِدٍ أَحَدٍ، فَرِدٍ صَمَدٍ، إِلَهٍ حَيٍّ قَيُّومٍ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا شِبْهَ لَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فَخَيْرُكَ فِي الْخُضُوعِ لَجَلَالِهِ، وَسَعَادَتُكَ فِي رَحْمَتِهِ وَإِقْبَالِهِ، وَفَوْزُكَ بِفَضْلِهِ وَنَوَالِهِ، وَسَعَادَتُكَ فِي إِقَامَةِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ، وَصِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَالْوَلَةِ، فَاعْنَمِ تَحْصِيلَ حَقَائِقِ السَّعَادَةِ بِأَدَبٍ مَعَ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، مَعَ حُسْنِ الْخُضُوعِ، وَتَمَامِ الْخُشُوعِ، وَصِحَّةِ الرَّجُوعِ إِلَى الْعَلِيِّ السَّمِيعِ، وَالْعَظِيمِ الْبَدِيعِ.
دَعْ الْأَوْهَامَ وَالْخَيَالَاتِ، فَإِنَّ عِزَّتَكَ وَشَرَفَكَ فِي إِدْرَاكِ عُبُودِيَّتِكَ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَاخْرُجْ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالظَّلَامِ، وَاقْتَدِ بِالْإِمَامِ، وَأَحْسِنْ الْإِتِّمَامَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ الْأَنَامِ، حَبِيبُ إِلَهِكَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، يَهْبُ رُبُّكَ مَحَبَّتَهُ لِمَنْ اقْتَدَى بِهِ، وَيَتَوَلَّى بِعَنَائَتِهِ مَنْ سَعَى فِي دَرْبِهِ.

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَيْدٌ) : فَأَقِمِ الْعِلَاقَةَ عَلَى إِحْسَانٍ بِالْعَبِيدِ مِنْ أَجْلِ سَيِّدِهِمْ؛ وَوَالِ أَوْلِيَائَهُ تَفْزَ بَوْلَائِهِ، وَعَادِ مَنْ خَالَفَهُ عِنَادًا مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَاوَةَ اللَّهِ لَهُ، تَحْظَ بِرِضَائِهِ .

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَيْدٌ) : فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُمْ أَرْبَابًا بِتَصْرِيحٍ وَلَا كِنَايَةٍ، وَلَا

بظاهرٍ ولا باطنٍ، ولا تُدَاهِنُ مِنْهُمْ أَحَدًا فِي دِينِهِ، ولا تتركُ شيئاً من أمرِهِ ولا تقتحمُ شيئاً من نهْيِهِ وزجرِهِ لأجلِ أحدٍ منهم؛ فكلهم عبيدٌ وهو السيّد، وهو الملك، وهو الإله، وهو الرّب، وهو القيّومُ عليهم، والقاهرُ فوقهم جَلَّ جلالُهُ.

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : فانْظُرْ مِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ فَكُنْ مَعَهُمْ، وانظرِ مِنْهُمْ مَنْ شَرَعَ لَكَ أَنْ تُطِيعَهُمْ فَأَطِيعَهُمْ، وانظرِ مِنْهُمْ مَنْ شَرَعَ لَكَ أَنْ تُخَالَفَهُمْ فَخَالَفَهُمْ، وانظرِ مِنْهُمْ مَنْ شَرَعَ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَهُمْ فَقَاتِلَهُمْ، وانظرِ إِلَى مَا شَرَعَ لَكَ مِنْ رَحْمَةِ الْجَمِيعِ، وَتَمَنَّى الْخَيْرَ لَهُمْ، فَاتَّصِلْ بِالرَّحْمَةِ ذِي الْجَاهِ الْوَسِيعِ؛ عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٌ، وَارْحَمْ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرْسَلَ رَحْمَةً إِلَيْهِمْ، وَهُمْ الْعَالَمُونَ.

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ) : فَلَا تُلْقِ بِاللَّائِمَةِ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، إِلَّا فِيمَا شَرَعَ لَكَ مِمَّا آتَاهُمْ مِنْ قُدْرَاتٍ وَاسْتَطَاعَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَمَشِيئَاتٍ وَاخْتِيَارَاتٍ، فَتَعَمَّدُوا صَرْفَهَا فِي غَيْرِ مَرْضَاتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ ذَلِكَ - وَمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ اللَّوْمِ أَوْ إِقَامَةِ الْحَدِّ - حِكْمَةٌ مِنْ حِكْمِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ فَتَأَدَّبْ، وَإِذَا أَقَمْتَ الْحَدَّ عَلَى زَانٍ مُحْصَنٍ أَوْ شَارِبٍ خَمِيرٍ أَوْ قَاذِفٍ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَأَنْتَ مُوَكَّلٌ بِهِ بِحُكْمِ الشَّرْعِ؛ بِأَنْ كُنْتَ وَالِيًّا.. فَلَا تُسَبِّهْ، وَلَا تَعْجِزْ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ أَنْ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقِيَهُ عَذَابَ الْقِيَامَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ الْحَدِّ فِي الدُّنْيَا.

فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ رُجِمَ حَدًّا: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ

لَوْ سَعَتْهُمْ»^(١) وفي رواية «إِنَّهُ لَيَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٢) وَقَالَ عَلَى مَن تَعَدَّدَ حَدُّهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْرِ عِنْدَمَا سَبَّهَ أَحَدُهُمْ: «لا تلعنوه؛ فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٣)، فأدرِكه المحبَّة بِتَحْقِيقِ التَّوْبَةِ .

جاء في رواية البخاري: «لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(٤) .
فِيهَا أَيُّهَا الْعَبْدُ: كُنْ مَعَ الْعَبِيدِ بِمَا شَرَعَ لَكَ السَّيِّدُ، وَاقْتَدِ بِالْقُدْوَةِ الَّذِي ارْتِضَاهُ لَكَ سَيِّدُكَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، واسمُ الْمُقْتَدِي: مُحَمَّدٌ، الَّذِي حُمِدَتْ خِصَالُهُ، وَصَدَقَتْ أَقْوَالُهُ، وَعَظُمَتْ خِلَالُهُ وَأَفْعَالُهُ؛ فَهُوَ قُدْوَةٌ فِي جَمِيعِ الْخِصَالِ، وَأُسْوَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لَمْ يَتَبَوَّأْ فِي كُلِّ حَالٍ إِلَّا ذِرْوَةَ الْكَمَالِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .
(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدُ) : وَقَدْ قَالَ الْقَائِلُ مِنْ ذَوِي الْحِكْمَةِ: لَوْ نَزَلَتْ بِكَ أَوْ بِأَوْلَادِكَ مُصِيبَةٌ فَاعْلَمْ أَنَّكَ قُصِدْتَ بِذَلِكَ، فَأَحْسِنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُسَلِّطُ أَحَدًا مِنَ الْعَبِيدِ عَلَيْكَ أَوْ عَلَى أَوْلَادِكَ، وَلَا يَنَالُهُمْ شَيْءٌ مِنَ السُّوءِ إِلَّا بِكَسْبٍ مِنْكَ، وَبِسُوءٍ صَدَرَ مِنْكَ .

وَكَمَا أَنَّ الَّذِي يُسْنِدُ الْعَطَاءَ إِلَى مَنْ يُسْدِي إِلَيْهِ مَعْرُوفًا - وَكَأَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ بِهِ - صَاحِبٌ بَاطِلٌ؛ فَالَّذِي يُسْنِدُ كُلَّ الْأَذَى لِمَنْ يُؤْذِيهِ - وَكَأَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ بِهِ - صَاحِبٌ

(١) أخرجه الإمام مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه، باب من اعترف على نفسه بالزنا (٣/ ١٣٢١/ ٢٢) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، باب السترة على أصحاب القروف (١٢/ ١٥٨/ ٩٢١٠)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٨/ ١٥٨/ ٦٧٨٠)

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٨/ ١٥٩/ ٦٧٨٠)

بَاطِلٌ أَيْضًا؛ فَمَا سُخِّرَ هَذَا وَلَا سُلِّطَ هَذَا إِلَّا لِحَكْمٍ مِنْ قِبَلِ الَّذِي يُسَلِّطُ وَيُسَخِّرُ،
وَيُقَدِّرُ وَيُدَبِّرُ، وَمَا سَبَبُ التَّسْخِيرِ إِلَّا الطَّاعَةُ، وَلَا سَبَبُ التَّسْلِيطِ إِلَّا الْمَعْصِيَةُ.

قال تعالى في نَشْرِ رَايَةِ هَذَا الْأَدَبِ فِي عَدَدٍ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْأَعْظَمِ
الْأَطْيَبِ، مَخَاطَبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِسَبَبِ مَا نَالَهُمْ مِنْ شِدَّةِ النَّصَبِ مِنْ عُنْجُومِ
فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ ثُمَّ
يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ ۚ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]

فَلَمْ يَقُلْ بَلَاءٌ مِنْ فِرْعَوْنَ، بَلْ مِنْ رَبِّكُمْ، اخْتَبَرَكُمْ بِهِ بِتَسْلِيطِ هَذَا الطَّاعِيَةِ .
(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عِبِيدُ) : فَاشْهَدْ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ.. قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ كُلُّ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

فَكَيْفَ تَكُونُ مُوَلَّعًا بِأَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ؛ صَانِعًا كَانَ أَوْ مَخْتَرَعًا أَوْ لَاعِبًا،
وَتَارِكًا صَلَاتَكَ بِرَبِّكَ؟ أَمَا تَسْتَحْيِي؟

(أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عِبِيدُ) : مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، وَمَلَكُهُمْ وَإِنْسِيَّهُمْ
وَجِنِّيَّهُمْ، وَصَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، وَنَبِيُّهُمْ وَرَسُولُهُمْ، وَصَدِيقُهُمْ وَفَاسِقُهُمْ وَمُجْرِمُهُمْ.
فَكَسَّرَ أَصْنَامَ الْفُجَّارِ وَالْكَفَّارِ وَالْأَشْرَارِ الْقَائِمَةِ فِي قَلْبِكَ وَبَاطِنِكَ .
يقول الإمام الحداد :

دَعِ النَّاسَ يَا قَلْبِي يَقُولُونَ مَا بَدَا لَهُمْ وَاتَّقِ بِاللَّهِ رَبَّ الْخَلَائِقِ
وَلَا تَرْتَجِ فِي النَّفْعِ وَالضَّرِّ غَيْرَهُ تَبَارَكَ مَنْ رَبُّ قَدِيرٍ وَخَالِقٍ
فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ الْأَمْرِ هَهُنَا وَلَا لِمَنْ شَيْءٌ فَاَعْتَمِدْ قَوْلَ صَادِقٍ

هُوَ الرَّبُّ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَكُلُّهُمْ عَبِيدٌ وَتَحْتَ الْحُكْمِ مِنْ غَيْرِ فَارِقٍ

قال الله لسيدهم وأكرمهم عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

فَهُمْ فِي الْعِبَادِيَّةِ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْحُكْمِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ؛ مِنْ حِمْلَةِ الْعَرْشِ،
وَالْكُرُوبِيِّينَ^(١) وَأَهْلِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَأَهْلِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَرُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ:
كَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَعِزْرَائِيلَ، وَجَمِيعِ سُكَّانِ السَّمَاوَاتِ، وَبَنِي آدَمَ
وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَمَا الْفَارِقُ؟ قَالَ :

نَعَمْ بَعْضُهُمْ مِمَّنْ يُحِبُّ وَيَرْضَى لِبَطَاعَتِهِ وَبَعْضٌ عَاصٍ وَمَارِقٍ
بَعْضُهُمْ يُحِبُّهُمْ وَيَرْضَاهُمْ، وَيُحِبُّ وَلَاءَهُمْ، وَيُحِبُّ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ، وَيُحِبُّ
الْإِنْتِمَاءَ إِلَيْهِمْ، وَيُحِبُّ مَتَابَعَتَهُمْ، وَيُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ؛ مِنْ أَنْبِيَاءٍ وَأَصْفِيَاءٍ
وَصِدِّيقِينَ، وَعُلَمَاءَ عَامِلِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ
أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]

وَالْبَعْضُ عَاصٍ وَمَارِقٍ: يَبْغِضُهُمْ وَقَدْ حَدَرْنَا مِنْهُمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ
الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام:

٦٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

بِتَوْفِيقِهِ صَارَ الْمَطِيعُ يُطِيعُهُ وَخَالَفَ بِالْخُذْلَانِ كُلُّ مُفَارِقٍ
فَسَلَّ رَبُّكَ التَّوْفِيقَ وَالْعَفْوَ وَالرِّضَا وَكَوْنًا مَعَ أَهْلِ الْهُدَى وَالطَّرَائِقِ
رَجَالٍ إِلَى الرَّحْمَنِ سَارُوا بِهَمَّةٍ عَلَى الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ

(١) هم أعلى الملائكة وسادتهم .

فَنَالُوا الَّذِي كُلُّ الْمَطَالِبِ دُونَهُ فَلِلَّهِ مِنْ عَيْشٍ كَرِيمٍ وَرَائِقِ
 دُنُوٍّ وَتَقَرُّبٍ وَأَنْسٍ بِحَضْرَةٍ مُقَدَّسَةٍ فِي مُتَنَهَى كُلِّ سَابِقِ
 فَآهٍ عَلَى عَيْشِ الْأَحِبَّةِ كَمْ أَسَى عَلَيْهِ وَكَمْ دَمْعٍ عَلَى الْحَدِّ دَافِقِ
 وَإِذَا لَمْ يُلْحَقْكَ اللَّهُ بِهَذَا الرَّكْبِ فَمَعَ مَنْ تَكُونُ ؟

فانظر خيرَ العبيد، وامشِ في منهجه الرشيد، تنلِ السَّعادةَ مع كلِّ سعيد.
 (أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَبِيدُ) : فَسَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ مُرَادَهُ فَيْكَ خَيْرًا، وَأَنْ يُوَفِّقَكَ
 فَتَعْمَلَ جُودًا وَبِرًّا، وَأَنْ يَرْفَعَ لَكَ عِنْدَهُ قَدْرًا، وَأَنْ يُصْلِحَ لَكَ أَمْرًا، وَأَنْ يَتَوَلَّاكَ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ سِرًّا وَجَهْرًا؛ فَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.
 (وَالِإِلَهِ فِينَا يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) : يُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ، وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ، وَيَمْنَعُ وَيُعْطِي،
 وَيُقَرِّبُ وَيُبْعِدُ، وَيُشْقِي وَيُسَعِّدُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، فَلَا تُقَاوِمُ بِإِرَادَتِكَ أَوْ إِرَادَةَ غَيْرِكَ
 إِرَادَتَهُ.

ف (هَمْكَ وَاعْتِمَاكَ وَيَحْكَ مَا يُفِيدُ) : وَيَحْكَ : كَلِمَةٌ تَرْحِمُ وَزَجْرٌ، أَي: مَاذَا
 يُفِيدُ هَمْكَ وَاعْتِمَاكَ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَضَاءُ (رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) ^(١)
 (هَمْكَ وَاعْتِمَاكَ وَيَحْكَ مَا يُفِيدُ) : هَمْكَ بِغَيْرِ إِقَامَةٍ أَمْرٍ اللَّهِ، خَوْفًا مِنْ أَنْ
 يَنَالَكَ أَوْ يُصِيبَكَ شَيْءٌ فِي شُؤْنٍ دُنْيَاكَ وَأَحْوَالِكَ.. هَمْ وَغَمْ مُوجِبٌ لِلنَّصَبِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس (٢٥١٦/٦٦٧/٤) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي
 ولفظ الحديث : «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا
 اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ
 اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»

والتَّعَبِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمُنْقَلَبِ، يُضَيِّعُ عَلَيْكَ صَفْوَ مُنَاجَاتِكَ وَعِبَادَتِكَ، وَقِيَامِكَ
بِمُهَمَّاتِكَ وَوَاجِبَاتِكَ، وَلَا يُفِيدُكَ فِي شَيْءٍ.

فَالْهَمُّ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَبِغَيْرِ إِقَامَةِ أَوْامِرِ اللَّهِ ضَرَرٌ.. فَلِمَ تَهْتَمُ؟!، وَالْمَبْدِئُ الْفَاطِرُ
قَائِمٌ عَلَى كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الْكَوْنِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِنَا وَأَقْوَالِنَا
وَأَفْعَالِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَسَّكُنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَسَّكُنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦ فَلَقُصِّنَ
عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿﴾ [الأعراف: ٦ - ٧]

فَهَلْ نَعْرِفُ الْهَمَّ الَّذِي يَنْفَعُكَ؟

الْهَمُّ الَّذِي يَنْفَعُكَ هَمُّكَ بِاللَّهِ، وَهَمُّكَ بِقُرْبِهِ، وَبِرِضَاهُ، وَبِمَحَبَّتِهِ، وَبِالْمَعْرِفَةِ بِهِ،
وَهَذَا الْهَمُّ يُكْسِبُكَ أُنْسًا فِي الدُّنْيَا لَا تَجِدُهُ فِي أَيِّ شَيْءٍ، أَمَّا الْهَمُّ بِشُؤْنِ الْأَقْصِيَّةِ
وَالْأَقْدَارِ، وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْدِيَارِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَاضِرِ، فَهَذِهِ مُنَازَعَةٌ وَتَجَرُّؤٌ
عَلَى اللَّهِ.

فاجعل هَمَّكَ بِهِ واعتمادك عليه، ولا تعتمد على مخلوق فإنَّ مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى
مَخْلُوقٍ عَاشَ مَتَعُوبًا وَمَهْمُومًا طُولَ عُمُرِهِ كَمَنْ يَتَطَلَّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ.
(الْقَضَا تَقْدَمُ): قَدْ جَرَى بِذَلِكَ الْقَلَمُ وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا،
فَالْهَمُّ لَا يُفِيدُكَ .

(فَاغْنِ السُّكُونَ) : تَنْزِلُ عَلَيْكَ السَّكِينَةُ، وَتُدْرِكُكَ الْمَعُونَةُ، وَتُكْفَى
الْأَهْوَالُ، وَتَتَوَلَّى الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى، وَمَهْمَا دَبَّرْتَ وَخَطَّطْتَ وَرَبَّتَ مَا قَضَى بِهِ
لِغَيْرِكَ فَلَنْ تُقْدَرَ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ لِنَفْسِكَ وَلَوْ اجْتَمَعَتْ مَعَكَ حُكُومَاتُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَلَوْ

قَدَّرَ لَكَ شَيْئًا فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ رَدَّهُ عَنْكَ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الدُّنْيَا كُلُّهُمْ.
فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ سِوَى آلَةٍ تُحَرِّكُهَا الْجَلَالَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]

(فَاغْنِمِ السُّكُونَ) : ثِقَّةً بِاللَّهِ، وَاعْتِمَاداً عَلَيْهِ، وَتَسْلِيماً لَهُ، وَتَفْوِضاً إِلَيْهِ؛
فهذه الغنيمة تُورِثُكَ ارْتِقَاءَ الْمَرَاتِبِ، وَنَيْلَ وَافِرِ الْمَوَاهِبِ، وَصَلَاحِ الْحَاضِرِ
وَالْعَوَاقِبِ؛ غَنِيمَةٌ يَغْنَمُهَا الْأَطْيَابُ مِنَ أُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ وَعَاوَا خِطَابَ السُّنَّةِ
وَالكِتَابِ، فَسَكَنُوا، وَاطْمَأْنَنُوا، وَتَوَكَّلُوا، وَوَثِقُوا، وَفَوَّضُوا الْأَمْرَ إِلَيْهِ .

الَّذِي لَغَيْرِكَ * لَا يَصِلُ إِلَيْكَ وَالَّذِي قُسِمَ لَكَ * حَاصِلُ لَدَيْكَ
فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكَ * وَالَّذِي عَلَيْكَ فِي فَرْضِ الْحَقِيقَةِ * وَالشَّرْعِ الْمَصُونِ
لَا يَكْثُرُ هُمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ

(الَّذِي لَغَيْرِكَ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ) : كُلُّ مَا كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِغَيْرِكَ مِنْ عِلْمٍ، أَوْ
عَمَلٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ، أَوْ مِنْ مَرْغُوبَاتِ النَّفْسِ أَوْ
كَانَ قَضَاءً بِسُوءٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ ضَرٍّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ دُونَ ذَلِكَ الْغَيْرِ بِأَيِّ حِيلَةٍ
وَبَأَيِّ وَسِيلَةٍ، وَلَوْ بِاجْتِهَادِكَ وَاجْتِهَادِ أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَكَ، وَلَوْ انْصَافَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ
السَّمَاوَاتِ، لَمَا تَغَيَّرَ مَا كَتَبَهُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنِ عَمِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ
يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»^(١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ وَمِنْ
بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ
رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]

(وَالَّذِي قُسِمَ لَكَ حَاصِلُ لَدَيْكَ) : الَّذِي قُسِمَ لَكَ فِي الْأَزْلِ بِقِسْمَةِ الْحَقِّ
مِنْ عِلْمٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ عَقْلٍ، أَوْ فَهْمٍ، أَوْ وَعْيٍ، أَوْ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ، أَوْ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس (٣/ ٦٢٤ / ٦٣٠٤) الناشر: دار الكتب العلمية ١٤١١ - ١٩٩٠

خير ظاهرٍ أو باطنٍ، في الحسِّ والمعنى، في الدنيا والبرزخ والآخرة كلُّ هذا واصلٌ إليك لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك، ولا يستطيع أحدٌ دفعه عنك، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

قال القائل :

اعتبر نحن قسماً بينهم تلقه حقاً وبالحق نزل
قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]
فإذا عرفت من القاسم ذهب عنك إلقاء اللوم على الخلق .
(والذي قسم لك حاصل لديك) : سيأتيك من أبعد مكانٍ ولو كان في فكرِ الناسِ ضربٌ من المستحيل .

قال تعالى عن قوم موسى : ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْطُغِعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ⑤ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]

والناظر للأحداث بنظرة بعيدة عن الاتصال بالحق يقول: كيف يُمكنُ لهم أن يكونوا أئمةً، وفرعون يُدبِّحُ أبناءهم، وهو فوقهم بسُلطته وجبروته! لكن كانت النهاية كما قال الله وأرادهُ، وبدأت نهاية فرعون من حين ولد ذلك الولد الذي لم تكن أمُّه تعرف كيف تُبعده عن القتل، فاتاها الوحي من الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ

إِلَيْكَ وَجَّعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[الفصص: ٧]﴾

ما هذه الخطة؟ أهذا الصبي هو الذي سيهز عرش فرعون ويقلبه عليه؟ وكانت النهاية كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: ٤٠]

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسُرَاقَة وهو الذي كان يُطارِدهُ في الهَجْرَة لِيَقْتُلَهُ: (كَيْفَ بَكَ وَأَنْتَ تَلْبَسُ سِوَارِي كِسْرَى) ^(١).

يَقُولُ هَذَا وهو مطارِدٌ في طريقِ هِجْرَتِهِ والمُشْرِكُونِ يَتَعَقَّبُونَهُ لِيَقْتُلُوهُ، فقال له سُرَاقَة بعد مَا تَيَقَّنَ أَنَّ لَهُ شَأْنًا آخَرَ يَخْتَلِفُ عَنْ بَقِيَّةِ الْبَشَرِ: اكْتُبْ لِي كِتَابًا بِهَذَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ سَيِّدَنَا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا، وَمَرَّتِ الْيَأْمُ وَلَبَسَ سُرَاقَة سِوَارِي كِسْرَى فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

(وَالَّذِي قُسِمَ لَكَ حَاصِلُ لَدَيْكَ) واصلُ لَدَيْكَ لَا مُحَالَة، فَإِنْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ فَبِمَاذَا تَشْتَغِلُ؟ قال:

(فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكَ): اغْنَمِ الشُّغْلَ بِالْإِلَهِ، فَإِنَّ أَسْمَى الْأَشْغَالِ، وَأَكْرَمَهَا وَأَفْضَلَهَا أَنْ يَشْتَغِلَ الْمَخْلُوقُ بِالْخَالِقِ؛ بِذِكْرِهِ، وَطَاعَتِهِ، وَتَأْمُلِ آيَاتِهِ، وَيَشْتَغِلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَيَشْتَغِلَ بِتَأْمُلِ بِلَاغِهِ وَأَحَادِيثِهِ، وَيَشْتَغِلَ بِأَدَاءِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَيَشْتَغِلَ بِمُطَالَعَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمُشَاهَدَةِ جَمَالِهَا الَّذِي لَا

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي، باب الاختيار بالتعجيل في قسمة مال الفيء (٦/ ٥٨١/ ١٣٠٣٣) الناشر: دار

الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

تَعَبَّرُ عَنْهُ الْعِبَارَاتُ.

وهذا الشُّغْلُ الكَرِيمُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْرَرَ الْمَشْغُولَ بِهِ عَنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْاِسْتِعْبَادِ
وَالْاِسْتِتْبَاعِ لَجَمِيعِ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ؛ عَلَوِيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ الشُّغْلُ،
وَنِيلَ ذَلِكَ الْوَصْلُ، نَازَلَ قَلْبَ الْإِنْسَانِ وَرُوحَهُ مِنْ جُودِ اللَّهِ وَفُتُوْحِهِ وَمُنُوْحِهِ
وَعَطَايَاهُ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفَادٍ، وَلَا يَحْصُرُهُ تَعْدَادٌ، وَلَا يُمَكِّنُ اسْتِقْصَاؤُهُ بِشَيْءٍ مِنَ
الْكَلِمَاتِ، وَلَا حَصْرُهُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَارَاتِ؛ بَلْ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[ص: ٣٩] ﴿إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[البقرة: ٢١٢] ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]

(فَاشْتَغِلْ بِرَبِّكَ) : فَقَدْ دُعِيتَ إِلَى الشُّغْلِ بِالْفَانِيَّاتِ فَاشْتَغَلْتَ بِهَا، وَدُعِيتَ
لِلْاِسْتِغَالِ بِبَرَامِجٍ لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا فَاشْتَغَلْتَ بِهَا، وَدُعِيتَ إِلَى الْاِسْتِغَالِ بِنَفْسِكَ
الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ فَاشْتَغَلْتَ بِهَا، وَدُعِيتَ إِلَى الْاِسْتِغَالِ بِالْفُضُولِ الَّذِي يَلْبِغُ فِيهِ الْخَلْقُ
فَاشْتَغَلْتَ بِهِ، وَدُعِيتَ إِلَى الْاِسْتِغَالِ بِبَعْضِ الْأَلْعَابِ فَاشْتَغَلْتَ بِهَا.
فَمَنْ الَّذِي دَعَاكَ إِلَى الْاِسْتِغَالِ بِكُلِّ هَذَا وَأَنْتَ قَدْ دُعِيتَ لِشُغْلٍ: أَكْبَرَ،
وَأَنُورَ، وَأَفْخَرَ، وَأَزْهَرَ، وَأَجَلَّ، وَأَكْمَلَ، وَأَفْضَلَ، وَأَهْيَ، وَأَزْهَى، وَأَرْفَعَ، وَأَجْمَعَ،
وَأَوْسَعَ، وَأَتَمَّ، وَأَقْوَمَ، وَأَعْظَمَ؛ فَلِمَ تَتْرُكُ هَذَا الشُّغْلَ الْأَعْظَمَ؟!

أَنْتَ دُعِيتَ لِأَنْ تَشْتَغَلَ بِاللَّهِ، فَمَنْ أَتَجَرُّ مِنْكَ، وَمَنْ أَرْبِحُ مِنْكَ؟ قَالَ تَعَالَى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْيَوْمِ ۖ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَكُفِّدُونِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١١] أَي: تَشْتَغِلُونَ بِي .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

أي: مهما انطلقتم في الحياة بأنواع وسائلها وما فيها، فاجعلوا المحبة القلبية لي ولرسولي، والشغل بي وبرسولي، لا تقدموا شيئاً على ذلك .

فلا يجوز صرف المحبة لغير الله ورسوله، ولا الجنة فضلاً عما سواها.
فحبُّ الله لأنه هو الخالق المنشئ المبدئ المنعم، وحبُّ رسوله لأنه أعلى وسيلة إلى الله، وأعظم سبب لنيل كلِّ المكارم من الله، فما أحدٌ في الخلائق له فضل علينا ويدٌ، مثل محمدٍ، وكلُّ من له يدٌ علينا فمن تحت يده صلى الله وسلم عليه.
فجزاه الله عنا أحسنَ ما جرى نبياً عن أمته.

ومن رحمته أنه يرقب ما يخلو ويحسن من أقوالِ أمته وأفعالهم ونياتهم مما يعرض عليه، فكونوا ثلةً في أمته تسرون قلبه بما يعرض عليه منكم، وما يصله من أخباركم؛ فإنكم إذا اشتغلتم بالله فرح منكم محمد بن عبدالله، وكان وصلةً بينكم وبين الله، تُسقون بها كؤوساً، تُزكى لكم بها النفوس، وتتصلون بالقدوس.

(فاشغل بربك) : ويا ما أحسن الشغل بالله، وإذا طاب لكم الشغل بالله استحلّيتم ذكره ومُنجاته وبداتم تذوقون كأس: «وجعلت قرّة عيني في

الصَّلَاةُ^(١)، وَكَأَسَ «أَرَحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ^(٢)»، وَلَا تَتَذَوَّقُ الْأَرْوَاحُ فِي الدُّنْيَا شَيْئًا أَلَدَّ مِنْ لَذَّةِ الْمُنَاجَاةِ إِذَا فُتِحَ لَكَ بَابُهَا، فَهِيَ لَذَّةٌ لَا تُسَاوِيهَا لَذَّةٌ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ.

(فَاشْتَغَلِ بِرَبِّكَ) : فَالْشُّغْلُ بِاللَّهِ طَيِّبٌ؛ وَإِذَا كَانَ هَمُّكَ بِهِ تَوَلَّى كِفَايَتَكَ كُلَّ هَمٍّ فِي الدُّنْيَا وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْبَرْزَخِ وَالْآخِرَةِ .
فَمَا قَالَبُ الشُّغْلِ بِاللَّهِ؟ قَالَ :

(الَّذِي عَلَيْكَ) : مِنَ الرِّضَا، وَالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَالذِّكْرِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ وَمِنَ الطَّهَارَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّيَامِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْجِيرَانِ، وَالنَّصِيحَةِ، وَالتَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ - هَذَا قَالَبُ الشُّغْلِ بِاللَّهِ -
أَمَا قَلْبُ الشُّغْلِ بِاللَّهِ فَيَضَعُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ، فَهُوَ شَأْنٌ لَا يُبْقِي فِيكَ بَقِيَّةً، وَلَا يَتْرُكُ فِيكَ ذَرَّةً لِيُغَيِّرَهُ، فَتَكُونُ كُلُّكَ لَهُ، وَيَكُونُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ كُلِّهَا لَكَ، فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ قَلْبِ الشُّغْلِ بِاللَّهِ؟!، لَكِنْ خُذْ قَالَبَهُ وَهُوَ ..
الذي عليك

(فِي فَرَضِ الْحَقِيقَةِ) : وَفَرَضُ الْحَقِيقَةِ أَنْ لَا تَنْقَطِعَ بَشْيَءٌ مِنَ الْخَلِيقَةِ .
(وَالشَّرْعُ الْمَصُونُ) : وَهُوَ الْمَعْرَاجُ لِنَيْلِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ إِذَا اسْتَمْسَاكَ بِالشَّرْعِ اسْتَمْسَاكَ بِعُرْوَةٍ وَثِيقَةٍ، يَقُومُ بِهِ الثَّبَاتُ عَلَى أَقْوَامِ الطَّرِيقَةِ، وَيُوصِلُ ذَلِكَ إِلَى ظُهُورِ أَنْوَارِ الْحَقِيقَةِ؛ وَهُوَ: أَنْ لَا تَنْقَطِعَ بَشْيَءٌ مِنَ الْخَلِيقَةِ عَنِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَعَالَى فِي

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن أنس رضي الله عنه، كتاب النکاح (٢/ ١٧٤ / ٢٦٧٦) الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١١ - ١٩٩٠

(٢) أخرجه الطبرانی في المعجم الكبير، باب سلمان بن خالد الخزاعي (٦/ ٢٧٧ / ٦٢١٥) دار النشر: مكتبة ابن تيمية .

عُلَاهُ، فَتَكُونُ مُنْزَرَةً الْقَلْبِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِمَنْ دُونَهُ، مَثْبُوتًا فِي دِيْوَانٍ مِّنْ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، فَنِعْمَ الشُّغْلُ بِاللَّهِ .

(وَالشَّرْعُ الْمَصُونُ) : شَرَعُ شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ، أَنْزَلَهُ عَلَى مُصْطَفَاهُ، فَبَلَغَهُ مُحَمَّدٌ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ شَرَعٌ مَّصُونٌ مُحَمِّيٌّ مُحْفُوظٌ؛ وَمَنْ اتَّصَلَ بِهَذَا الشَّرْعِ وَقَامَ بِحَقِّهِ مَصُونٌ بِصَوْنِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَصُونُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَابْنِ عَبَّاسٍ: «إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»^(١)

وَهَذَا الشَّرْعُ الْمَصُونُ لَا تَتَنَاوَلُهُ الْأَهْوَاءُ، وَلَا أَيْدِي الْعَبَثِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَاحٍ أَنْ يَمْحُوهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مُعَادٍ أَنْ يُفْنِيَهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ»^(٢)

وَكَمْ حَاوَلُوا إِطْفَاءَ نُورِ الشَّرْعِ، وَتَغْيِيرَ مَعَالِمِهِ عَلَى مَدَى الْقُرُونِ، وَهُوَ الْيَوْمَ أَوْضَحُ مَا يَكُونُ، وَأَجَلَى مَا يَكُونُ، وَأَقْوَى مَا يَكُونُ، قَائِمٌ بِاللَّهِ وَبِرِسْوَائِهِ . وَقَدْ لَعِبَتِ الْأَهْوَاءُ بِكَثِيرٍ مِّنَ النَّاسِ فَنَسَبُوا إِلَى الشَّرْعِ مَا لَيْسَ فِيهِ، فَأَيْنَ هُمْ الْآنَ وَأَيْنَ هِيَ أَفْكَارُهُمْ ؟

فَهُوَ شَرَعٌ مَّصُونٌ بِصِيَانَةِ الْحَقِّ لِحَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَوَجَاهَةِ الْأَمِينِ الْمَأْمُونِ لَدَى الرَّبِّ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ .

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٥ / ١٩ / ٢٨٠٣) .

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ حَصِينٍ، بَابُ فِي دَوَامِ الْجِهَادِ (٣ / ٤ / ٢٤٨٤) وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ ثَوْبَانَ (٣ / ١٥٢٣ / ١٩٢٠) بِلَفْظٍ «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَعَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ (٨ / ١٤٥ / ٧٦٤٣) «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ يَغْزُوهُمْ، قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ» .

شَرَعَ الْمُصْطَفَى * الْهَادِي الْبَشِيرُ خَتَمَ الْأَنْبِيَا * الْبَدْرُ الْمُنِيرُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ * الرَّبُّ الْقَدِيرُ مَارِيحُ الصَّبَا * مَالَتْ بِالْغُصُونِ
لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرَ يَكُونُ



(شَرَعَ الْمُصْطَفَى) : نَسَبَ الشَّرْعَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَلَقِّهِ وَمُؤَدِّيهِ،
وَمُظْهِرُهُ وَبَادِيهِ، وَمُؤَسِّسُهُ وَبَانِيهِ، وَأَعْلَى الْقُدْوَةِ فِيهِ؛ فَقَالَ: (شَرَعَ الْمُصْطَفَى).
وَقَدْ نُسِبَ الدِّينُ وَالشَّرْعُ كُلُّهُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهو شَرَعَ الْمُصْطَفَى،
الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ بِأَعْلَى الْأَصْطِفَاءِ.

فَكُلُّ مُصْطَفَى غَيْرُهُ فَهُوَ دُونَهُ، وَكُلُّ مُجْتَبَى سِوَاهُ فَهُوَ تَحْتَهُ، فَهُوَ أَصْفَى جَمِيعِ
الْأَصْفِيَاءِ .

وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُخِذَتْ
عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِيقُ وَالْعُهُودُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ وَيَتَّبِعُوهُ وَيَنْصُرُوهُ إِذَا بُعِثَ فِي أَرْزَمَتِهِمْ،
وَأَكَّدَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ إِعْلَانًا بِشَأْنِ مُحَمَّدٍ وَقَدْرِهِ الْعَالِيِّ لَدَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ
وَتَعَالَى فِي عِلَالِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ

ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٣]

ثم قال له أعلنها يا محمد وقل لاتباع الأنبياء من قبلك : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ وَمُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ
يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٤ -
٨٥]

فما هذه العظمة؟!

هكذا يصنع الله من أجل محمد؛ لمكانته لديه، ورفيع رتبته عنده، وعظمة
محبه له؛ فما أحب ربكم أحداً كما أحب محمداً، ولقد أصاب الصحابة أن لم يحبوا
أحداً كما أحبوا محمداً، ولم يعظموا أحداً كما عظموا محمداً؛ فإنما تخلقوا بخلق
الإله، عليهم رضوان الله .

فلا دين صحيح على وجه الأرض قط إلا الإسلام، وكل دين غيره باطل
وضلال وكفر، فالإسلام دين آدم، ودين شيث بن آدم، ودين إدريس، ونوح،
وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، ويوسف، والأسباط،
وسليمان، وداوود، وزكريا وموسى ويحيى وعيسى، وجميع النبيين .

ومن أغرب الغرائب أن أناساً بغير وعي من عقل ودين، يريدون أن يجعلوا

الله ديناً غير الذي اختاره، ويريدون أن يُلزِمُوا اللهَ بأنْ يُدْخِلَ أَصْحَابَ الْأَدْيَانِ
الْأُخْرَى إِلَى جَنَّتِهِ! فما هذا الْفِكْرُ؟

لِيسَتِ الْجَنَّةُ مُلْكاً أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ حَتَّى يَتَحَكَّمَ فِيهَا هَذَا الْمَخْلُوقُ، بَلِ
الْحُكْمُ فِيهَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ حَكَمَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ .

أَمَّا عَنِ التَّسَامُحِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْآخَرَى فَيَدِينُ اللهُ أَوْسَعَ
مِنْ عَقْلِكَ، فَقَدْ عَلَّمَنَا أَنْ نُحْسِنَ التَّعَامُلَ مَعَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْآخَرَى وَإِنْ كَانَتْ
بَاطِلَةً، بَلْ عَلَّمَنَا أَنْ نُحْسِنَ التَّعَامُلَ حَتَّى مَعَ الْمُحَارِبِينَ وَقْتَ الْحَرْبِ .

أَتُرِيدُ حُسْنَ الْجَوَارِ؟ أَتُرِيدُ الْأَمَانَةَ؟ أَتُرِيدُ الصَّدْقَ؟ أَتُرِيدُ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ؟
هَذَا مَوْجُودٌ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى، فَقَدْ عَاهَدَ رَسُولُ اللهِ الْمُشْرِكِينَ وَوَفَّى، وَعَاهَدَ
يَهُودَ وَوَفَّى، وَمَا نَقَضَ عَلَى أَحَدٍ عَهْداً، وَقَاتَلُوهُ فَأَحْسَنَ إِلَى أَسْرَاهُمْ حَتَّى اسْتَحَى
الْأَسْرَى مِنْ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ، فَهَاتِ لِي فِي زَمَنِ التَّقَدُّمِ دَوْلَةً مُتَقَدِّمَةً اسْتَحَى أَسْرَاهَا
مِنْ إِحْسَانِهَا .

حُسْنُ التَّعَامُلِ فِي مَنْهَجِ الْخَالِقِ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ طَرِيقِ اللَّعِبِ
عَلَى الْأَدْيَانِ، وَلَا مِنْ طَرِيقِ إِحْقَاقِ الْبَاطِلِ وَإِبْطَالِ الْحَقِّ؛ فَالْحَقُّ حَقٌّ وَالْبَاطِلُ
بَاطِلٌ، وَلَا خَلْطَ فِي هَذَا .

وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَنْقَسِمُ فِيهِ أَهْلُ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ؛ فُسْطَاطِ إِيْمَانٍ

خَالِصٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ، وَفُسْطَاطٍ كُفْرِ خَالِصٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ^(١)، وَسَتَذْهَبُ كُلُّ هَذِهِ
الْأَلَاغِيبِ وَالْأَبَاطِيلِ فِي الدُّنْيَا، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَكُلُّ شَيْءٍ وَاضِحٌ وَبَيِّنٌ، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَيَوْمَ يَعِصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]
كَانَ مَعَ الْمُفَكِّرِ الْفُلَانِي أَوْ الْفِيلَسُوفِ الْفُلَانِي أَوْ الْحِزْبِ الْفُلَانِي وَلَمْ يَكُنْ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ.

(شَرْعُ الْمُصْطَفَى): اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَاجْتَبَاهُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ خَلْقِهِ، جَاءَ فِي صَحِيحِ
الْإِمَامِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ،
وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٢). وَجَاءَ أَيْضًا فِي
رَوَايَةٍ أُخْرَى: «ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ
الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي
هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ»^(٣).
(شَرْعُ الْمُصْطَفَى): الَّذِي ابْتَدَأَ اللَّهُ خَلْقَ الْوُجُودِ بِإِيْجَادِ نُورِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(شَرْعُ الْمُصْطَفَى): الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ اسْمَهُ بِجَنْبِ اسْمِهِ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ (٤/٥١٣/٨٤٤١) النَّاشِرُ: دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ ١٩٩٠، وَأَبُو
دَاوُدَ (٤/٩٤/٤٢٤٢)

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، بَابُ فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
(٤/١٧٨٢/٢٢٧٦) النَّاشِرُ: دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

(٣) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ، بَابُ ذِكْرِ فَضَائِلِ قُرَيْشٍ (٤/٨٣/٦٩٥٣) النَّاشِرُ: دَارُ الْكُتُبِ
الْعِلْمِيَّةِ

فَكُلُّ قَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)^(١)
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

فَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ أُولِي الْعِزِّمْ، وَأَفْضَلُ أُولِي الْعِزِّمْ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لِغَيْرِ
 مُحَمَّدٍ، وَلَا يُفْتَحُ بَابُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِيَدِ مُحَمَّدٍ.

وَقَدْ سَعِدَتْ أُمَّتُهُ بِسَعَادَتِهِ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُرَّا أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ
 عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وَهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اصْطَفَاهُمْ بِفَضْلِ مِنْ عِنْدِهِ
 بِوَاسِطَةِ حَبِيبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا بِاِكْتِسَابٍ مِنْهُمْ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢)
 وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : (إِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أَنْتَ، وَعَلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (٤٨٩/٥) بِلَفْظٍ «لَمَّا افْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، قَالَ: يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ
 بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَّا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ يَا رَبِّ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ
 وَنَفَخْتَ فِي مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتَ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ
 تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ
 غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ». قَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ مِنْ هَذَا الْوُجْهِ عَنْهُ، وَهُوَ
 ضَعِيفٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بَابُ هَلْ عَلَى مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْجُمُعَةَ غَسْلُ (٢/ ٨٩٦) النَّاشِرُ:
 دَارُ طُوقِ النِّجَاةِ.

الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ^(١) ففي الأُمَمِ السَّابِقَةِ أَصْفِيَاءُ وَشُهَدَاءُ وَصَدِيقُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَكِنْ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْجَنَّةَ حَتَّى يَدْخُلَهَا آخِرُ فَرْدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جاء في الحديث القدسي : «يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْيَمِينِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيهَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ»^(٢)

وجاء في صحيح البخاري : «وَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُخْرِجُهَا»^(٣) فَأَخِرُ رَجُلٍ يَجُوزُ عَلَى الصَّرَاطِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، يَجُوزُ قَبْلَ أَنْ تَجُوزَ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ بِأَنْبِيَائِهَا وَأَوْلِيَائِهَا وَصَدِيقِهَا وَالْمُقَرَّبِينَ فِيهَا .
نسأل الله أن يجعلنا في حِزْبِ الْمُصْطَفَى، وفي حِرْزِهِ وفي مِلَّتِهِ آمين اللهم آمين.

(الْهَادِي الْبَشِيرُ) : الْهَادِي بِأَمْرِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى صِرَاطِ اللَّهِ، وَإِلَى مَنَهِجِ اللَّهِ، وَإِلَى مَرَصَاطِ اللَّهِ، وَإِلَى الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَإِلَى الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ، وَإِلَى اللَّطَائِفِ وَالْأَسْرَارِ، وَإِلَى اسْتِجْلَاءِ مَعَانِي صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ، وَإِلَى مَكَارِمِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، باب ما أعطى الله محمد صلى الله عليه وسلم (٦/٢٣٧/٣١٨٠٢).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب (ذرية من حلمنا مع نوح) (٦/٨٤/٤٧١٢).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناظرة) (٩/١٢٨/٧٤٣٧).

الناشر: دار طوق النجاة . وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في سننه (١٣/٣٠٣/٧٩٢٧) بلفظ «وَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يَخْرُجُ»

الأخلاق، وإلى حميد الشَّامِل.

(الهادي البشير) : وقد احتلَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أتى الله خلقه من الهداية أعلى المنازل؛ بل تفرَّعت منه هداية كلِّ هادٍ في الخلق من بعده.

وذلك أن الله ابتدأ الخلق بخلق هذا النور، فهدهُ وعلمهُ، ثم خلق من هذا النور العرش والكُرسي، واللوح، والقلم، والملائكة، والإنس، والجن، والكائنات كلها.

فبأسرار هذا النور أوحى الله إلى الأنبياء والمرسلين خير الهداة، وأعظمهم في الوجود، ومع ذلك أخذ الله المواثيق والعهود عليهم لإثبات أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإمام للهداة.

والهداية لها معانٍ واسعة، ولها بداية وليس لها نهاية، والذي يختص بالإله جلَّ جلاله من هذه الهداية، إنشاء عين التوفيق والقدرة وخلقها في العبد، وتمكينه من صرف القوى إليها.

لكن هناك هدايات يجريها الله على أيدي العباد، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصر: ٥٦]

وفيه معنيان؛ المعنى الأول: الهداية المخصوصة بالله سبحانه وتعالى بالمعنى السابق الذي ذكرناه .

والمعنى الثاني؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبُّ الهداية للخلق كلِّهم لكنه مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُحِبَّ ذَاتًا إِلَّا ذَاتًا محبوبَةً لله، فيقول الله : لِمَنْزِلَتِكَ يَا مُحَمَّدٌ لَا نَجْعَلُكَ

تُحِبُّ إِلَّا الْمَحْبُوبِينَ عِنْدَنَا وَنَحْنُ نَتَوَلَّى هِدَايَتَهُمْ .

والهدايا بالنسبة للمحبوبين هداياتٌ غيرُ الهدايا الأولى، فأولى الهدايا هداية بيانٍ، وتوضيحٍ، وتفهمٍ، وتعليمٍ، وإرشادٍ، وهذه مبذولةٌ للخلق، من كلِّ مَنْ وَصَلَتْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ، قال الله عنها في قومِ ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فهل أسلموا؟ قال الله: ﴿فَاسْتَجَبُوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]

فمعنى الهداية هنا البيانُ لهم على لسانِ صالحٍ عليه السلام، فما آمَنَ مَعَ صالحٍ إِلَّا القليلُ، وأما الأكثرون فقد كفَرُوا واستجَبُوا العَمَى على الهدى .
وكلُّ مكلفٍ على ظَهْرِ الأرضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ فَلَمْ يُؤْمِنْ أَنَّهَا الْحَقُّ فَهُوَ الْأَعْمَى، وإن كان مخترعاً أو صانعاً أو رئيساً أو وزيراً أو ما إلى ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] والذي عَلِمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ هُوَ الْبَصِيرُ، ولو كان أعمى البصر، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَادٍ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْهُدَايَةِ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

وجاء هنا بلام التوكيد في قَوْلِهِ (لَتَهْدِي)

وقد قال الله عَمَّنْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيْدِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]

ولكن إذا جاءهم في زمانهم وَجَبَ عليهم أن يتبعوه فهو هادي الهداة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لسيدنا عمر وقد أتاه بكتابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ كِتَابًا حَسَنًا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَمْتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِهَا بَيِّضَاءَ نَفِيَّةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بَيَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(١)

وقد جمع الله الأنبياء ليلة الإسراء والمعراج فَصَلُّوا خَلْفَهُ؛ فكانوا مأمومين

وهو الإمام . قال الإمام الحداد :

وَصَلَّى وَصَلُّوا خَلْفَهُ فَإِذَا هُوَ — — — — — حَقْدَمٌ وَهُوَ الرَّأْسُ لِأَهْلِ الرَّئَاسَةِ

اللهم صَلِّ عليه واجمعنا به، وَأَرِنَا وَأَشْهِدْنَا مَجْمَعَ الْأَنْبِيَاءِ فِي حَضْرَتِهِ، لِنَرَى كَيْفَ يَكُونُ نُوحٌ فِي حَضْرَتِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ، وَكَيْفَ يَكُونُ مُوسَى، وَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى، وَسَيُشَاهِدُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِينَ يُدْرِكُونَ زَمَنَ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ عِنْدَمَا يُخْرَجُ، كَيْفَ يَذْكُرُ مُحَمَّدًا ، وَكَيْفَ يَقْتَدِي بِهِ، وَكَيْفَ يَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِ، وَكَيْفَ يَزُورُ قَبْرَهُ الشَّرِيفَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : «لِيَهْبِطَنَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه عن جابر بن عبد الله (٢٣/ ٣٤٩/ ١٥١٥٦) الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى،

عيسى ابن مريم حكماً عدلاً، وإماماً مُقْسِطاً وَلَيْسُ لَكَنَّ فَجًّا حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ
بَنِيَّتَهُمَا وَلِيَّاتَيْنِ قَبْرِ حَتَّى يُسَلَّمَ وَلَا رُدَّنَ عَلَيْهِ»^(١).

فهم يُعْظَمُونَهُ بتعظيم الله له، ولأنهم أَعْرَفُ بالله فهم أَعْرَفُ مِنَّا بالنبى
محمَّد، ولا يستطيع أحدٌ مِنَّا أَنْ يَعْرِفَ النبىَّ محمَّدًا كَمِثْلِ الأنبياء.

(الهادي البشير) : الذي جاء بالبشارة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَبَشَّرَ عَنْ الله
عِبَادَهُ بِشَارَاتٍ واسعاتٍ كثيراتٍ كبيراتٍ، ولم يَزَلْ مُبَشِّرًا، ولم يَزَلْ بِالنِّعَمِ وَالْمُنْعَمِ
مُذَكِّرًا، ولم يَزَلْ عَنْ حَقَائِقِ الْبَشَائِرِ مُعَبِّرًا، فهو البشيرُ الأعلى عَنْ الله جَلَّ وَعَلَا، حتى
إذا نَازَلَ الْخَلَائِقَ فِي الْمَوَاقِفِ الْكُبْرَى يَأْسُ كان هو المُبَشِّرُ والقائلُ: «وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ
إِذَا أَيْسُوا»^(٢) صلواتُ ربي وسلامه عليه .

ولم يَزَلْ مِفْتَاحَ الْبَشَائِرِ مِنْ حَضْرَتِهِ صَادِرًا و واصلاً مِنْ ذَاتِهِ مُبَاشَرَةً، أَوْ
عَنْ مَنْ يَنْوُبُ ، فَيُبَشِّرُونَ بِهِ عَنْهُ عَنْ الله جَلَّ جَلَالُهُ وتعالى في علاه بأنواع الْبَشَائِرِ .

وقد أَمَرَ الله نبيَّهُ محمَّدًا أَنْ يَحْمَلَ الْبَشَائِرَ لِلْمُبَشَّرِينَ، فقال له: ﴿وَبَشِّرِ

الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] وقال له: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]

وقد اشتهر في سِيرَتِهِ تبشيرُ أناسٍ مَخْصُوصِينَ مُعَيَّنِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِالجنة،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن أم حبيبة، باب ذکر نبی الله وروحه عيسى (٢/ ٦٥١/ ٤١٦٢) الناشر: دار الكتب
العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠

(٢) أخرجه الدارمي في سننه عن أنس، باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم (١/ ١٩٦/ ٤٩) الناشر: دار المغني
للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م

وكان من أعلامهم العشرة الذين اشتهر خبر تبشيرهم بالجنة في حديث واحد، وهم سادتنا أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام^(١)، فكان هؤلاء العشرة المبشرون بأعيانهم بالجنة من خيار الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وقد بشر غيرهم بالجنة ومنهم السيدة خديجة فقد جاء في صحيح البخاري وغيره من كتب السنن، عن جبريل أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب"^(٢)

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يبشر بالعموم والخصوص لأماكن ولأناس ولقبائل ولأفراد معينين، بمختلف من العطاء والفضل الرباني في الدنيا وفي الآخرة.

وقد جاء قوم من بني تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: "اقبلوا البشري يا بني تميم" قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن فقال لهم: "

(١) أخرج ابن حبان في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف، باب ذكر إثبات الجنة لأبي عبيدة (١٥/٤٦٣/٧٠٠٢) ما نصه: «عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، والزبير في الجنة، وطلحة في الجنة، وابن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم (٣٨٢٠/٣٩/٥)

إِقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ" قَالُوا: قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ^(١).

فهو البشير كثير التبشير لمن أقبل وتوجه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ

الذِّكْرَ وَخِئْيَ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]

فكل ما كان من بشاراته صلى الله عليه وسلم كان تحت هذا الأمر الرباني الإلهي منه أن يُبَشِّرَ، ثم بقيت آثار هذا التبشير لكل من اتصف بتلك الأوصاف التي أمره الله أن يُبَشِّرَ أهلها بها على مدى القرون من بعد حياته صلى الله عليه وسلم فيما بث في سُنَّته من الثناء عليهم والتنويه بهم، ثم ما يحصل بين أرواحهم وروحانيته صلى الله عليه وسلم، ورؤيته في المنام أو اليقظة، فيُسَبَّلُ ويُرْسَلُ ويُعَدَّقُ عليهم البشائر صلوات ربي وسلامه عليه.

قال الإمام الشافعي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لي: ((بشّر أحمد بالجنة على بلوى تُصيبه))، فبعث رسولاً إلى عند الإمام أحمد بن حنبل، يقول له: إن أبا عبدالله محمد بن إدريس الشافعي يُقرئك السلام، ويقول لك: إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: ((بشّر أحمد بالجنة على بلوى تُصيبه))، فقال: الله المستعان، فأراد أن يعطي مكافأة للذي جاءه بهذه البشارة، فلم يكن معه إلا قميصه الذي كان عليه، فنزع قميصه وأعطاه إياه، فحمله وعاد إلى الإمام الشافعي، فقال له: هل بلغته؟، قال: نعم، قال: فماذا أعطاك؟، قال: أعطاني هذا القميص، قال: من صندوقه أم من على جسده؟، قال: بل من على جسده، قال:

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين (٤/ ١٠٥ / ٣١٩١) دار طوق النجاة.

فلا نَفَجَعَكَ بِقَمِيصِكَ؛ ولكن هل تأذنُ لنا أن نَغْسِلَهُ فُنْبِقِي المَاءَ عِنْدَنَا، وهذا من تَبَرُّكِ الأئمةِ ببعضِهِم البعض، فغَسَلَ القميصَ وأبقى المَاءَ عِنْدَهُ عليه رضوان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولم تَزَلْ هَكَذَا البَشَائِرُ تتوالى؛ بل لا يكادُ يقومُ أحدٌ من أُمَّتِهِ بصحيحٍ وخَالِصٍ خِدْمَةٍ لِلشَّرْعِ تنفعُ النَّاسَ إلا ونَازَلَتْهُ مِنْهُ البَشَائِرُ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .

وَمَا مِنْ بَشَارَةٍ بعد ذلك في الآخرة إلا وهو مِفْتَاحُهَا؛ إذ لا يَشْفَعُ شَفِيعٌ حتى يَفْتَحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَابَ الشَّفَاعَةِ، ولا يَدْخُلُ دَاخِلُ الْجَنَّةِ حتى يَدْخُلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو البشير النذير، والسراج المنير، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذِينِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] فَنِعَمَ الْمُبَشِّرُ هُوَ.

ولما كان حَامِلَ الْبَشَارَةِ الْكُبْرَى، وَالْبَشَائِرِ الْعُظْمَى، بَشَّرَ بِهِ النُّبِيُّونَ مِنْ قَبْلُ؛ قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فِي تَلْخِيصِ رِسَالَتِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، أَي يَا عِيسَى، إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ مِفْتَاحَ الْبَشَائِرِ فَأَعْلَى بَشَائِرِكَ أَنْ تُبَشِّرَ بِهِ.

ولما اسْتَعْرَضَ الْبَشَائِرَ صَحَابِيَهُ الَّذِي كَانَ فِي حِرَاسَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، عِنْدَ مَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سل ما تشاء"، قَالَ لَهُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي

الجنة^(١)؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَعِيَّةَ أَكْثَمُ بَشَارَةٍ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ فِي الْآخِرَةِ غَيْرِ الْمَعِيَّةِ. إِذَنْ فَالْمَعِيَّةُ هِيَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ وَالرَّأْسُ، وَبَقِيَّةُ النِّعَمِ مُنْطَوِيَةٌ فِيهَا.

(خَتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) : وَهِيَ رُتْبَةٌ خَصَّ اللَّهُ بِهَا مُحَمَّدًا دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْبَرِيَّةِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]

فَهُوَ الْخَتَمُ لِلنَّبُوَّةِ، الْمَتَّبِيُّ أَعْلَى ذُرَاهَا، وَبِهِ كَانَتْ بَدَايَةُ النَّبُوَّةِ وَكَانَ خَتَمُهَا، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ أَبَدًا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(٢) فَعَقِبَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَقِيَ شَرْعُهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْحَدَّادُ:

بِهِ خَتَمَ اللَّهُ النَّبُوَّةَ وَابْتَدَأَ فَلِلَّهِ مِنْ خَتَمٍ بِهِ وَبَدَايَةٍ

(خَتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) : الْخَتَمُ بِمَنْعِ حُدُوثِ نُبُوَّةٍ بَعْدَ بَرُوزِ نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ رِبْعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ، بَابِ فَضْلِ السُّجُودِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ (١/٣٥٣/٤٨٩) النَّاشِرُ: دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ عَنْ أَبِيهِ، بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى (مَنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) (٦/١٠٥/٤٨٩٦) دَارُ طُوقِ النِّجَاةِ.

في عالم الشهادة، إلى أن تقوم الساعة، وقد كان في عالم الغيب ختمًا للأنبياء وبدايةً، جاء في الحديث الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ»^(١) لم يُنْفَخْ فِيهِ الرُّوحُ بَعْدُ .

فهو متبوءٌ ذرّوةٌ معاني حَقِيقَةِ خَتَمِ النُّبُوَّةِ بِرُوحِهِ الْكَرِيمَةِ، وَأَنْوَارِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآدَمُ لَمْ يُنْفَخْ فِيهِ الرُّوحُ بَعْدُ .

والارتقاء في النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ إلى أَعْلَى مَعَانِي ذُرَاهَا يَكُونُ خَتَمًا لَمَّا وَرَاءَهُ، وَهَذَا لَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَمَهْمَا ارْتَقَوْا فَهُمْ كَمَا قَالَ الْبُوصِيرِيُّ :

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحَكَمِ
(خَتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) : أَعْلَاهُمْ رُتْبَةٌ وَقَدْرًا وَمَنْزِلَةٌ، وَآخِرُهُمْ فِي الْبَعْثِ، قَالَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ، وَآخِرُهُمْ فِي الْبَعْثِ»^(٢) .

وَلِذَا كَانَتْ دَعْوَى النُّبُوَّةِ مِنْ بَعْدِهِ كُفِّرَ وَخَرُجَ عَنِ الْمِلَّةِ؛ فَلَا نُبُوَّةَ بَعْدَهُ، وَإِذَا نَزَلَ سَيِّدُنَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَى نَبِيٍّ وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، رَسُولُ اللَّهِ وَنَبِيِّهِ، يَكُونُ عَلَى قَدَمِ الْمَتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، عَامِلًا بِشَرْعِهِ، وَبِسُنَّتِهِ، وَلَا يُوحَى إِلَيْهِ بِشَرْعٍ جَدِيدٍ، وَإِنْ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَالْحَوَادِثِ حَتَّى

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن العرباض بن سارية (١٤/٣١٢/٦٤٠٤) الناشر : مؤسسة الرسالة

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة (٤/٣٤/٢٦٦٢) الناشر : مؤسسة الرسالة .

أَنَّهُ يَحْدُثُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ فَرُّوا إِلَى الْجِبَالِ وَصَبَرُوا عَلَى الْجُوعِ - حِفَاطًا عَلَى دِينِهِمْ
أَيَّامَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ - بِمَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَلَكِنْ لَا يُوحَى إِلَيْهِ بِشَرِّ، فَالشَّرُّ
شَرُّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْقَائِلُ: « لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ
يَتَّبِعَنِي »^(١)

وَكَذَلِكَ يَكُونُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي مَعَانِي وَرَاثَتِهِ خَتْمِيَّةً، رَاجِعَةً إِلَى مَرَاتِبَ
عَلِيَّةٍ، فِيهَا مِيزَاتٌ وَخُصُوصِيَّةٌ؛ فَيَكُونُ فِي كُلِّ زَمَانٍ خَتَمٌ لِلأَوْلِيَاءِ وَارِثٌ خَتَمِ
الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُتَبَوِّءًا فِيهَا ذِرْوَةً، وَمُرتَقِيًا فِيهَا سِدْرَةً مُنْتَهَى فِي
شُؤُونِ الْوَلَايَةِ وَالْمَوَارِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ.

(خَتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) : وَيُرَوَّى فِي الْحَدِيثِ : (أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِائَةٌ أَلْفَ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةٌ
وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَأَنَّ الرُّسُلَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ)^(٢).

وَلَمَّا عَدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ وَهُمْ مُتَوَجِّهُونَ لِغَزْوَةِ بَدْرٍ فَكَانَ عَدْدُهُمْ
ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، فَقَالَ : عَلَى عِدَّةِ قَوْمٍ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ^(٣).

وَيَقُولُونَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي عَدَدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَدَمُ حَصْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُقِضَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذر، باب الإيمان برسول الله (١/ ٢٧٨ / ١٣١) الناشر: مكتبة الرشد للنشر

الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

(٣) انظر البحر المحيط في التفسير لأبو حيان الاندلسي (٢/ ٥٧٣) الناشر: دار الفكر - بيروت - الطبعة: ١٤٢٠ هـ

هَذَاكَ الْمُبْطُلُونَ ﴿[غافر: ٧٨]

والواجبُ الإيمانُ إجمالاً بكلِّ نبيٍّ بعثه الله، وبكلِّ رسولٍ أرسله الله، سواء كان عددهم مثل ما جاء في الحديث أو أكثر، حتى لا يكون منكراً لنبوّة أنبياء آخرين لو كانوا أكثر من هذا العدد، فيكون على خطرٍ .

وقد فصلَ الله لنا أسماءَ خمسةٍ وعشرين في القرآن الكريم، ذكر ثمانية عشر منهم في موضعٍ واحدٍ، قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴿٨٤﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦]

وبقي سبعةً فقط لم يُذكرُوا في هذه الآيات، وإنما جاءت أسماءُهم مُفرقةً في القرآن الكريم، وهم آدم عليه السلام وذوالكفل وإدريس وصالح وهود وشعيب ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء الخمسة والعشرون يجبُ الإيمانُ بهم تفصيلاً.

(البدرُ المنير) : والبدر : عبارة عن القمر في ليلة كماله، ليلة الخامس عشر من كلِّ شهرٍ، حيث يكون القمر فيه بدرًا، ويُقال له: البدرُ التَّمُّ، والبدرُ التَّمامُ، وهو من المظاهر التي جعلها الله في ما خلقَ وصوّر في عالم الحس ذات نورٍ وضياء، قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]

وقد وَصَفَ اللهُ عَبْدَهُ الْمُصْطَفَى بِقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝۵۰﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]

فِيُسْتَعَارُ اسْمُ الْقَمَرِ، وَاسْمُ الْبَدْرِ وَاسْمُ الشَّمْسِ، لَمَّا كَانَ مُنِيرًا فِي شُؤُونِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَأُمُورِهِ الْغَيْبِيَّةِ، وَأَحْوَالِهِ الرُّوحِيَّةِ، فَاسْتُعِيرَ لَفْظُ الْبَدْرِ لِلنُّورِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَصْلًا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَالنُّورِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ مِنْهُ ابْتِكَارَ وَاخْتِرَاعَ وَإِحْدَاثَ وَإِبْرَازَ كُلِّ نُورٍ؛ فَهُوَ نُورُ الْأَنْوَارِ، أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الْبَرِيَّةِ، وَبِهِ اسْتَنَارَ قَلْبُ كُلِّ مَنْ نُورَ اللَّهُ قَلْبَهُ؛ مِنْ مَلَكٍ وَإِنْسٍ وَجَنٍّ فِي جَمِيعِ الْوُجُودِ، بِإِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِهِ، وَبِهِ اسْتَنَارَتِ الْعُقُولُ بِالْإِشْرَاقِ وَالْإِشْرَادِ، وَاسْتَنَارَتِ الْقُلُوبُ بِالتَّصْفِيَّةِ وَالتَّنْقِيَّةِ وَالْعِرْفَانِ، وَاسْتَنَارَتِ الْأَرْوَاحُ بِالْوَلَعِ وَالْمَحَبَّةِ، وَاسْتَنَارَتِ الْأَسْرَارُ بِالْمُشَاهَدَةِ.

فَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ نُورًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ كِتَابًا سَمَّاهُ نُورًا، وَأَرْسَلَهُ بِدِينٍ هُوَ نُورٌ لِلْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ وَالْأَفْكَارِ وَالْبَصَائِرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝۱٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

[النساء: ١٧٤]

هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ بِهِ اهْتَدَيْنَا هُوَ الدَّاعِي إِلَى أَقْوَى سَبِيلٍ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي يَنْطُمِسُ أَمَامَهُ كُلُّ نُورٍ سِوَاهُ، وَفِي هَذَا قَالَ الْإِمَامُ الْحَدَّادُ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ:

محمد الطهر لي نوره طمس كل نور

كما تنطمس وتندرج أنوارُ الشُّمُوعِ في نُورِ الكهرباء، وكما تنطمس وتندرج أنوار الكهرباء في نور الشمس، وكما تنطمس وتندرج أنوار النجوم في نورِ البدر، وينطمس القمرُ ونورُه في نور الشمس، وبذلك مثل الإمام البوصيري لهذه الحقيقة، وقال:

فإنه شمسٌ فضلٍ هم كواكبُها يُظهِرُ أنوارها للنَّاسِ في الظُّلَمِ
وقد فَاضَ نُورُهُ الشَّريْفُ الكَرِيمُ مِنْ عالمِ الباطنِ والرُّوحِ والغيبِ إلى عالمِ
الحسِّ، فكان مِنْ وَصْفِ الصَّحَابَةِ لَهُ : كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ^(١)، وقال سيدنا أبو
هريرة: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي
وَجْهِهِ^(٢)، وقال بعضُ مآدحيه: إِذَا مَشَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَكَأَنَّهُ الْقَمَرُ بَيْنَ النُّجُومِ
الزُّهْرِ وَإِذَا أَقْبَلَ لَيْلًا فَكَأَنَّ النَّاسَ مِنْ نُورِهِ فِي أَوَانِ الظُّهْرِ، وقالت السيدة عائشة:
كُنْتُ أَخِيطُ ثَوْبًا لِي فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ فِي السَّحَرِ فِي بَيْتِي، فَسَقَطَتِ الْإِبْرَةُ، وَاِنْطَفَأَ
الْمِصْبَاحُ، فَجَعَلْتُ أَتَحَسَّسُ وَأَبْحَثُ بِيَدِي عَنِ الْإِبْرَةِ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَيْهَا، قَالَتْ:
فَأَقْبَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَفَعَ سِتَارَةَ الْبَيْتِ أَشْرَقَ الْمَكَانُ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ فَرَأَيْتُ
الْإِبْرَةَ فَرَفَعْتُهَا، وَقُلْتُ: مَا أَضْوَأَ وَجْهَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهَا: «الْوَيْلُ لِمَنْ لَا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن كعب بن مالك، باب حديث توبة كعب بن مالك (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٩)

الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (١٤/ ٥٠٦/ ٨٩٤٣) الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى،

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

يراني يوم القيامة يا عائشة»، قالت: وَمَنْ لا يراك؟! قال: «مَنْ ذُكِرْتُ عَنْده فلم يُصَلِّ علي»^(١) صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، صلوات ربي وسلامه عليه.

(البدر المنير): والعظمةُ في هذه الإنارة.. أَنْ تنتهيَ إلى الإعدادِ لحُسْنِ الاستقبالِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ وبصيرةٍ وروحٍ وسريرةٍ وسرٍّ إلى تَعَرُّفاتِ المولى الذي يتعرَّفُ بها إلى عبادِه، فيستنيرُ لهم مَعْنَى الصِّفاتِ، ومعنى الأسماءِ، وعظمةِ الذَّاتِ، مِنْ هذا النورِ.

فهو بدرٌ منيرٌ إلا أَنْ ما اسْتُعِيرَ اسْمُهُ مِنَ البدورِ الحسبيةِ تَغيبُ، وهذا لا يَغيبُ، وتُخَسَفُ وهذا لا يَخْسَفُ، وتَفْنَى وهذا لا يَفْنَى، فإذا خُسِفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقُذِفَ بهما في النَّارِ أو في الْبَحْرِ ازدادَ إِشْراقُ هذا النورِ؛ فالشمسُ تنتهي، والقمرُ تنتهي، وهذا النورُ لا ينتهي.

وبذلك كان يُشِيرُ بعضُ أهلِ الشُّعْرِ إلى ما امتدَّ مِنْ هذا النورِ في قلوبِ

(١) ذكره عبد الملك النيسابوري في كتابِ شرف المصطفى بهذا اللفظ (١٠٣/٢) وأخرجه الإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣ / ٣١٠) ولفظه: عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت استعرت من حفصة بنت رباحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبينت الإبرة من شعاع نور وجهه فَصَحَّكْتُ، فقال يا حمراء لم صَحَّكْتُ؟ قلت كان كيت وكيت فنأدى بأعلى صوته يا عائشة الويل ثم الويل ثلاثاً لمن حَرَّمَ النظر إلى هذا الوجه، ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي أن ينظرَ إلى وجهي هـ... وذكره ابن عساكر في تاريخه، باب صفة خلقه ومعرفة خلقه، (٣ / ٣١٠) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

حَكَمَ بعض العلماء على هذا الحديث بالوضع، ولكن قواعد المصطلح لا تساعد عليه، فالأولى الحكم بالضعف فقط وهو الذي ينطق عليه القواعد ويتماشى معها.

ووجوه الأبرارِ الأخيارِ، ويقول:

أمرتقُبُ النجومِ مِنَ السماءِ نجومُ الأرضِ أبهرُ في الضياءِ
فتلك تبيّنُ وقتاً ثم تخفى وهذه لا تُكَدَّرُ بالخفاءِ
هدايةُ تلك في ظلمِ الليالي هدايةُ هذه كشف الغطاءِ

يقول: إِنَّ نجومَ الأرضِ أبهرُ مِنْ نُجومِ السَّماءِ، ووجه تفضيلها أَنَّ نُجومَ الأرضِ - ويقصد بهم العارفين والدّالّين على الله - تكشفُ الحجاب بينك وبين ربِّ الأربابِ فهي أبهرُ وأجملُ، وهي آثارٌ مما انتشرَ مِنْ نُورِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب الصالحين، فهو البدر المنير وهو نور الله الأكبر .

جعلنا الله ممن استنار بهذا النور، وظَفِرَ بالخطِّ الموفور، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ) : الصَّلَاةُ مِنْ اللهِ رَحْمَةً ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ صَلَوَاتٌ لَا تُحْصَى مَعَانِيهَا، وَلَا تُسْتَفْصَى بَدَائِعُهَا وَعَجَائِبُهَا بِكُلِّ مَعْنَى أَبَدًا سَرْمَدًا..
فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ.. إخراجُهُ مِنْ حَيِّزِ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، ثُمَّ مَا مِنْ نِعْمَةٍ وَلَا فَضِيلَةٍ وَلَا مِنَّةٍ وَلَا مَنَحَةٍ وَلَا رُتْبَةٍ وَلَا دَرَجَةٍ وَلَا كَمَالٍ وَلَا فَضْلٍ يَنَالُ ذَلِكَ الْمَوْجُودَ إِلَّا وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ورحماته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَزَّعَتْ فِي الْبَرَائَا، وَعَلَى قَدْرِهَا كَانَتْ أَقْدَارُهُمْ، وَعَلَى عَظَمَتِهَا كَانَ مَنَارُهُمْ، وَعَلَى اتِّسَاعِهَا كَانَتْ الرَّفْعَةُ فِي أَطْوَارِهِمْ.

إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ أَيقَنْتَ أَنَّ الرَّحْمَنَ لَمْ يُصَلِّ وَلَنْ يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ [ك] صَلَاتَهُ

على زَيْنِ الْوُجُودِ وَسَيِّدِ الْخَلْقِ، ولولا ذلك لما كَانَ زَيْنُ الْوُجُودِ وَلَا سَيِّدُ الْخَلْقِ،
وإنَّهَا كَانَ أَكْرَمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ بِهِ أَرْحَمُ، وَلِأَنَّ رَحْمَتَهُ مِنَ اللَّهِ
مُعْظَمَةٌ جَلِيلَةٌ بَهِيَّةٌ سَنِيَّةٌ شَرِيفَةٌ، كَانَتْ فَوْقَ كُلِّ رَحْمَةٍ؛ بَلْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْهَا رَحْمَتَهُ لِمَنْ
عَدَاهُ.

وكانَ اخْتِيَارُ لَفْظِ الصَّلَاةِ دُونَ لَفْظِ الرَّحْمَةِ، لما تحويه الصَّلَاةُ مِنْ إِشْعَارٍ
بِالتَّعْظِيمِ، فالصَّلَاةُ لَيْسَتْ مُطْلَقَ الرَّحْمَةِ، وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مَقْرُونَةٌ بِالتَّعْظِيمِ، وَالرَّحْمَةُ
الْمَقْرُونَةُ بِالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ تَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَكَانَةِ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْهِ عِنْدَ ذِي
الْجَلَالِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولِذَا فَإِنَّ الْحَقَّ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ عَلَى حَبِيبِهِ، أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ
هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْهِ، وَثَنَى بِذِكْرِ مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

وَأَتَى بِلَفْظِ الْمُضَارَعِ (يُصَلِّي) لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْاسْتِمْرَارِ وَالِدَّوَامِ، وَالتَّجَدُّدِ بِلَا
انْتِهَاءٍ وَلَا غَايَةٍ .

ثُمَّ وَجَّهَ الْأَمْرَ لِمَنْ آمَنَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ؛ لما طَوَى مِنْ أَنْ تَذَكَّرَ الرَّحْمَةَ الْعُظْمَى
بِالتَّعْظِيمِ الْأَسْمَى مِنَ اللَّهِ لِحَبِيبِهِ.. سَبَبُ لِمَعْرِفَةِ سِرِّ الْوُجُودِ، وَتَخْصِصِ الْحَقِّ
الْمَعْبُودِ لِعَبْدِهِ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ مِنْ بَيْنِ أَجْناسِ الْوُجُودِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ إِفَاضَةِ
الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ بِقَوْلِهِ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً

واحدة صَلَّى الله عليه بها عَشْرَ صلوات^(١).

فكان ذِكْرُنَا لَصَلَاةِ الرَّحْمَنِ عَلَى حَبِيْبِهِ سَبَبًا لِصَلَاةِ الْحَقِّ عَلَيْنَا، وَرَحْمَةِ اللَّهِ إِيَّانَا، فَمَا أَعْجَبَ هَذَا التَّدَاخُلَ وَالتَّرَابُطَ؛ مَا بَيْنَ أَنْ نَطْلُبَ الرَّحْمَةَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَنْ يَرْحَمَنَا رَبُّ مُحَمَّدٍ بِذِكْرِنَا لِمُحَمَّدٍ، وَرَحْمَتِهِ الَّتِي قُورِنَتْ بِالتَّعْظِيمِ لِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ .

وقد أَفْصَحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَظِيمِ نَتَائِجِ هَذِهِ الصَّلَاةِ لِمَنْ سَهَّلَتْ لَهُ عِنَايَةُ الرَّحْمَنِ الرَّقِيقِي فِي مَعَارِجِهَا، فَقَالَ: «إِنْ أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَى صَلَاةٍ^(٢)»، فِي يَوْمٍ يَتَطَلَّعُ فِيهِ إِلَى الْقُرْبِ مِنْهُ وَالدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالتَّلَصُّاقِ بِهِ أَكْبَرُ الْأَكْبَارِ مِنْ أَهْلِ حَضِيرَةِ الْقُدْسِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ؛ مِنْ أَوَّلِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مَلَكًا فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي يَقُولُ لَهُ: إِنْ لَكَ اللَّيْلَةُ ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ فَسَلِّ، قَالَ: «فَقِيلَ لِي: مَا الْأَوَّلَى؟، قُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَقِيلَ لِي: وَمَا الثَّانِيَّةُ؟، قُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: مَا الثَّالِثَةُ؟، فَاخْتَبَأْتُ الثَّالِثَةَ؛ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي، فِي يَوْمٍ يَلُودُ فِي فِيهِ النَّاسُ؛ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣)»

(١) أخرجه النسائي في سننه عن أنس بن مالك، باب الفضل في الصلاة على النبي (٣/ ٥٠ / ١٢٩٧) الناشر: مكتب

المطبوعات الإسلامية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

(٢) أخرجه الترمذي في سننه عن عبدالله بن مسعود، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي (١/ ٦١٢ / ٤٨٤) الناشر:

دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م

(٣) أخرجه الإمام مسلم عن أبي بن كعب، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (١/ ٥٦١ / ٨٢٠) في حديث طويل جاء فيه «أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هُوَ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ أَقْرَأُهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ

فماذا تُنتج الصَّلواتُ على سيِّدنا مُحَمَّدٍ؟

تنتجُ الفخرَ الأجددَ، والمقامَ الأعلى، والشأنَ الأوحدَ، وتقتضي قُرْبَ النبيين،
والقُرْبَ مِنْ سيِّدِهِمْ في يومِ الدِّينِ، وهل فوقَ ذلكَ مِنْ مجدٍ أو شَرَفٍ أو مَعَالٍ بها
صاحبُها يَتَشَرَّفُ؟!

وما في صَلواتنا عليه إِلَّا تَذَكُّرُ أَنَّهُ المَقْدَّمُ والمُعَظَّمُ، والمخصوصُ مِنَ الرَّحْمَنِ
بالفَضْلِ الأتمِّ؛ فَإِنَّهُ قد صَلَّى هُوَ عليه فما تُساوي صَلواتنا؟

فما يَكُونُ مِنْ صَلواتنا إِلَّا أَنْ يزدادَ يَقِينُنا وإيمانُنا بتَعْظيمِ الحَقِّ وتَعْظيمِ مَنْ
اصطفاهُ وعَظَّمَهُ، فننالَ رَحِماتٍ كَثِيراتٍ؛ فالعَوائِدُ عَلينا عَائِداتٌ، والفَوائِدُ إلينا
رَاجِعاتٌ، وهو الغني عَنَّا وعن صَلواتنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولكن تقريرُ معنى الصَّلاةِ عليه التي خَصَّهُ اللهُ بها دُونَ البريةِ، وتَقْرِيرُ نَيْلِهِ
لِلدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ مِنَ الوَسِيلَةِ والفضيلةِ والمقامِ المَحمودِ، له تأثيرٌ في قَلْبِ الذي يُقَرِّرُ
فيه ذلكَ، بِإِقَامَةِ حَقائِقِ التَّهْلِيلِ والتَّحْمِيدِ والتَّسْبيحِ والتَّكْبِيرِ لِلْعَلِيِّ الكَبيرِ،
وبذلك يُعَرَفُ مَقامُ مَنْ اصطفى واجتَبى وانتَخَبَ مِنْ بَيْنِ البرِيَّةِ، وبذلك جَاءنا في
حديثه الصحيح: «[إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ
صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُّوا اللهُ لِي الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي
الْجَنَّةِ، لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي

إِلَيْهِ أَنْ هُوَ عَلَى أَمْتِي، فَزِدْ لِي الثَّالِثَةَ أَقْرَأَهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةً تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ
اغْفِرْ لِأَمْتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَمْتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبراهيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ^(١)، وفي رواية «فإنه لا يسألها لي مؤمنٌ في الدنيا إلا كنتُ له يومَ القيامةِ شفيعاً أو شهيداً»^(٢)

وإن سألت الوسيلة أو لم تسألها فهي له، وهو صاحبها، ولكن عند سؤالك إياها تعلم عظمة الذي جعل الوسيلة، والذي جعل صاحبها عبده محمداً، وبذلك تقرب من رحمة الله.

فدارت معاني إرادة الله الرحمة على دائرة الرحمة ومركز الرحمة، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَذِيذُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]

وما معنى ﴿وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ وقد قال: ﴿كَفَرُوا﴾؟

نص الله على هذا ليُعلم أنه جلَّ جلاله أدار رحمة وعدابه على هذه الدائرة، وأن المتصل بها هو المرحوم، والمنفصل عنها هو المعذب المبعود المطرود، والكل يُدرك ذلك؛ حتى الظلمة في القيامة من الملحدين والكافرين والبغاة المفسدين قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]

سقطت الأحزاب، والحكومات، والاتجاهات، والوزارات، ولم يبق إلا محمد، فيعلم الكل مقامه عند ربه صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ويتمنى أن تكون له رابطة بهذا النبي، وصلة بهذا المقرب.

لذلك كان الاشتغال بالصلاة عليه من أقوى أسباب الرضوان، وأعظم

(١) هذا اللفظ ورد في صحيح الإمام مسلم عن عمرو بن العاص، باب القول مثل قول المؤذن (١/ ٢٨٨ / ٣٨٤)

(٢) أخرجه ابن عدي في كتاب نسخة الزبير بن عدي عن ابن عباس، (١/ ٦٥ / ٦٤) [الكتاب مخطوط]

وسائل التَّطْهِيرِ عَنْ مَخْتَلَفِ الْأَدْرَانِ، وَسَبَبِ قَطْعِ الْعَقَبَاتِ لِلْوُصُولِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛
حتى عند استتارِ الشيوخِ وَقَلَّتِهِمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، يَكُونُ إِكْثَارُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ السَّبَبُ
الْأَقْوَى لِلْوُصُولِ، وَنِيلِ الْقَبُولِ، وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَشْيَاخُ لِصَاحِبِهَا فَيَكْلَفُوا بَفَتْحِ الْبَابِ
لَهُ بِأَمْرِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيَتَهَذَّبُ بِهَا، وَيَتَأَدَّبُ بِهَا، وَيَتَطَهَّرُ بِهَا.

وفي الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمَهْذَبَ الْمُؤَدَّبَ هُوَ الْأَكْثَرُ صَلَاةً عَلَى الْحَبِيبِ الْمُقَرَّبِ،
جاء الحديثان: «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ
أَخْلَاقًا»^(١) و«إِنْ أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً»^(٢)، وفيها إِشَارَةٌ إِلَى
أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ مُرْتَبِطٌ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ؛ فَمَنْ كَانَ أَكْثَرَ صَلَاةً كَانَ
أَحْسَنَ خُلُقًا؛ لِأَنَّهُ يُنَوِّرُ وَيُطَهِّرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَلَا يَكُونُ أَحْسَنَ خُلُقًا إِلَّا مَنْ
كَانَ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بِجَنَابِ الْحَبِيبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَيُكْثِرُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ،
فَمَا أَعْظَمَهَا وَمَا أَعْجَبَهَا وَمَا أَجَلَّهَا وَمَا أَجْمَلَهَا، وَمَا أَحْسَنَ قَطْعَهَا لِلْسَّبَابِ
وَالْعَقَبَاتِ، وَمَا أَحْسَنَهَا فِي الرِّبْطِ بِخَيْرِ الْبَرِّيَّاتِ.

وَإِذَا صَدَرَتْ الصَّلَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ بِالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ وَالشَّوْقِ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ
مُسْتَشْعِرًا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِذَلِكَ فَامْتَثَلَ الْأَمْرَ، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْمُقَرَّبَ سَبَبُ
وُجُودِهِ وَوُجُودِ الْخَلْقِ بِأَمْرِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسَبَبُ وَصُولِ كُلِّ رَحْمَةٍ وَكُلِّ نِعْمَةٍ
إِلَى كُلِّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ وَمَرْحُومٍ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ، وَهُوَ صَاحِبُ الْمَقَامِ

(١) أخرجه الترمذي عن جابر، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٣/٤٣٨/٢٠١٨) الناشر: دار الغرب الإسلامي،

سنة النشر: ١٩٩٨ م

(٢) تقدّم تحريجه .

المحمود رفعته تلك الصلاة إلى مقام عالٍ وكانت نتائجها كبيرة .

ولأجل ذلك يُوقِنُ أهل الموقف أن لا يَصِلُوا إلى شيءٍ من رحمة الله إلا من هذا البابِ ومن طريقِ هذا العَبْدِ، ولا يَقْدِرُ على الكلام أكابرُهُم من الملائكة والأنبياء، فضلاً عن الذين أُهِنُوا من الكَفَرَةِ والجَبَابَةِ المتكبرين، لا يَقْدِرُ أحدٌ منهم على الكلام إلا خَيْرُ الأَنَامِ، ولا يُنْقَلَوْنَ من تحتِ الشَّمْسِ في يومِ الأهوالِ العِظامِ وما يكون بعدَ ذلك من فَصلِ القَضَاءِ، ومن استِلامِ الكُتُبِ بالآيَّانِ، ومن رُجْحَانِ الميزانِ، ومن المرورِ على الصُّراطِ، ومن دخولِ الجنةِ، إلا بشفاعَةِ صاحبِ المقامِ المحمودِ وبعد خطابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ إِنَّمَا يُوصِلُ رَحْمَتَهُ إِلَيْهِمْ عَبْرَ هذا العبدِ المحبوبِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

إِذْنُ فَالْكَلُّ يَعْرِفُ قَدْرَ مُحَمَّدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لكن مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ أَيَّامَ كَانَ فِي عَالَمِ التَّكْلِيفِ فِي الدُّنْيَا، هو الذي يرتفع له القَدْرُ هناك، أَمَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ فِي الدُّنْيَا فلا يَنْفَعُهُمْ ذلك بعد أن انتهت الفُرْصَةُ والمَهْلَةُ التي أمهلهم الله إِيَّاهَا .

ربطنا الله بهذا النبي، ورزقنا كثرة الصلاة والسلام عليه.

ولقد قال له سَيِّدُنَا أَبِي بَنٍ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟

ومعنى (كم أجعل لك من صلاتي) فيه تفسيران :

الأول: أَنِي أَسْتَغْرِقُ مِنْ أَوْقَاتِي وَأَصْرِفُ فَرَاعِي فِي الصَّلَاةِ عَلَيْكَ.

والثاني: أَن صَلَوَاتِي عَلَيْكَ كَثِيرَةٌ فَكَمْ مِنْ ثَوَابِهَا أَجْعَلُهُ لَكَ وَأُهْدِيهِ إِلَيْكَ؟

فَقَالَ: مَا شِئْتُ. قَالَ: قُلْتُ: الرَّبُّعَ، قَالَ: مَا شِئْتُ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلَاثِينَ، قَالَ: مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: أَجْعَلْ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ: "إِذَا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرَ لَكَ ذَنْبُكَ" (١).

إِذَا جَعَلْتَ لِي صَلَاتَكَ كُلَّهَا فَلَا هَمَّ وَلَا ذَنْبَ، وَإِذَا كُفِيَ الْإِنْسَانُ هَمَّهُ فِي الدُّنْيَا انْتَهَتْ مَشَاكِلُ الدُّنْيَا، وَإِذَا غُفِرَ ذَنْبُهُ فِي الْآخِرَةِ انْتَهَتْ مَشَاكِلُ الْآخِرَةِ فَلَا تَبْقَى لَهُ مُشْكَلَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

حتى قال العارفون أَنَّ الذي يُكثِرُ الصَّلَاةَ عليه بالمحبة والشوق والتعظيم ينطبع في قلبه صورة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجماله الأسنى الذي خلقه الله عليه، وما في جميع الأكوان وسيلة إلى إشراق نور الرحمن في القلب كمثل صورة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهي أسنى الآيات، وإذا كان تصوُّر المساجد، والكعبة المشرفة، والروضة الشريفة، يؤثِّر في التنقية والتطهير، فذات المصطفى فوق ذلك كله، وأعلى من ذلك كله، فينقدح في قلب مكثِر الصلاة عليه صورته البهيَّة، وطلعت الغراء السنيَّة، ويكون من أقوى أسباب رؤيته والاجتماع به في الدنيا والآخرة.

ثم إِنَّ الصَّلَاةَ عليه تُنسَبُ إلينا ونحن لا نَعْمَلُ شيئاً، وليست من عندنا الصلاة؛ إنما نطلب من ربِّه الذي أَمَرَنَا بالصَّلَاةِ أَنْ يُصَلِّيَ هُوَ عليه، ولا نستطيع أن

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي بن كعب، (٤/ ٦٣٧/ ٢٤٥٧) والحاكم في المستدرک (٢/ ٥٥٨/ ٣٨٩٤)

نفعل أكثر من ذلك فنقول : اللهم صلّ عليه . فإذا قلنا ذلك : فما الذي فعلناه؟
 لكن قال لنا أنتم فقط اطلبوا من الذي أَمَرَكُم بالصلاة عليه أن يصلي عليه؛
 لكي ترتبطوا وتتصلّوا وتعرفوا القدر والمكانة، وتُعظّموا هذا الرب ومختاره بأن
 تقولوا : اللهم صلّ عليه؛ أي: ارحمه رحمةً عاليةً عظيمةً، مقرونةً بالتعظيم، لائقةً
 بمقامه عندك ومنزلته لديك.

ويتضمن ذلك إعطاءه جميع ما طلب في أمته وفي شئونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم
 قالوا: وإذا صحّت صلاة الله عليك فإن جميع أعمالك لا تُساوي ذرةً من
 صلاة الله عليك، فلو وضعنا جميع أعمالك الصالحة في كفة، وجاءت صلاة واحدة
 من الله لرجحت بهذا كله، فكيف إذا كنا نُعطى بالصلاة عليه إذا قبلت عشر
 صلوات .

فسيئاتك في الميزان يمكن أن ترجح بحسناتك لأن سيئاتك وحسناتك من
 فعلك، لكن صلاة الله عليك من فعله هو سبحانه وتعالى ولا يرجح شيء عليها،
 لأنه لا يمكن أن يرجح فعل آدمي على فعل الله تعالى في علاه .

ولذا روى أبو القاسم القشيري في تفسيره^(١) أنه إذا خفت حسنات المؤمن
 يوم القيامة عند الميزان، أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيلقئها
 في كفة الميزان التي فيها الحسنات فترجح الحسنات، فيقول ذلك العبد المؤمن
 للنبي صلى الله عليه وسلم: بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك، فمن

(١) وذكره عنه القرطبي، ورواه الواحدي في البسيط، ذكره عنه الرازي في تفسيره.

أنت؟ فيقول أنا نبيك محمدٌ، وهذه صلاتك عليّ وقد وفّيتك إياها أحوج ما تكون إليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ^(١).

كما جاء في الحديث الآخر «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدُّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَنْكِرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهْتُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِلَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَرَنَّاكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِلَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِلَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقَلَتِ الْبِلَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْئًا^(٢).

حقّقنا اللهم بحقائقها، وارزقنا كثرة الصلاة والسلام على من جاءنا بها، خير من قالها، وأعظم من علّمها؛ عبدك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وكان بعض المكثرين من الصلاة عليه كثير الرؤية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يترقى في شئون رؤيته من مرقى إلى مرقى أعلى، قال: حتى ألححت ليلة على ربي أن يريني إياه كما كانت تراه عائشة وابنته فاطمة الزهراء، قال: فتجلى لي تلك

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ١٦٧) وتفسير النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٠٢)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص (٤/ ٣٢١ / ٢٦٣٩) الناشر: دار الغرب الإسلامي

الليلة بجلالٍ وجمالٍ وكمالٍ حارٍ عقلي فيه؛ ما رأيتُ قبله ولا بعده مثله، ومع كثرة رؤاَيَ له فيما مضى ما ساوت شيئاً عند ما رأيتَه تلك الليلة على هذه الصورة التي بدأ لي بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فهو جمالُ الله المطلق، ولكنه تحت أستار الغيرة، وإنما يُتَجَلَّى على كُلِّ قلبٍ بما استحقَّ، أو بما تهيأ، أو بما سبقت له سابقةُ الشهادة؛ ليرى حقائق جمالِ الله في محبوبه، وصفوته وخيرته، وهو القائل: «الويل لمن لا يراني يقوم القيامة»، قالت السيدة عائشة: ومن لا يراك يوم القيامة يا رسول الله؟، قال: «من ذكرتُ عنده فلم يصلِّ علي»^(١)، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ): اسم الجلالة (الله) هو الاسمُّ الأجلُّ الأكبرُ الأعظمُّ الأعلى الأرفعُ، الذي تنطوي فيه جميعُ الأسماءِ والصفاتِ، وليس للعبادِ معه إلا التولُّه والتعلُّق والتشوق والتولُّع بهذا الإله، وشهودُ سرِّ ألوهيَّته السَّاري في جميعِ الوجود؛ فهو الاسمُّ العليُّ العظيمُ الكبيرُ، وهو الاسمُّ الذي يَفْتَحُ المؤمنُ به بابَ رُوحِهِ من خلالِ تكريره. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]

(١) ذكره عبد الملك النيسابوري في كتاب شرف المصطفى بهذا اللفظ (١٠٣/٢) وأخرجه الإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣ / ٣١٠) ولفظه: عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت استعرت من حفصة بنت رباحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبينت الإبرة من شعاع نور وجهه فَصَحَّكْتُ، فقال يا حمراء لم صَحَّكْتُ؟ قلت كان كيت وكيت فنأدى بأعلى صوته يا عائشة الويل ثم الويل ثلاثاً لمن حُرِّمَ النظر إلى هذا الوجه، ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي أن ينظر إلى وجهي اهد.. وذكره ابن عساكر في تاريخه، باب صفة خلقه ومعرفة خلقه، (٣ / ٣١٠) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

حَكَمَ بعض العلماء على هذا الحديث بالوضع، ولكن قواعد المصطلح لا تساعد عليه، فالأولى الحكم بالضعف فقط وهو الذي ينطق عليه القواعد ويتهاشى معها.

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]

وإنما ينغمس في بحار المحبة لله والمحبة من الله من أكثر ذكر اسم الله، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ تَزِدُّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٣٢] هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٣٣] هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: ٢٢-٢٤]

فلا ينبغي أن يحل في قلبك شيء من الأسماء محل هذا الاسم قط، بل ينبغي أن يكون هذا الاسم الأغلب على قلبك وفكرك وشعورك وحضورك واستحضارك.

يجب أن تتولع وتتولاه بهذا الاسم، وأن يكون أكثر خطوراً على بالك وذهنك من كل اسم.

وامتلي تعظيماً وإجلالاً وإكباراً وتقديساً وتسيحاً له.

وامتلي انخفاضاً وتذلاً وإنابةً واعترافاً، واستشعار عجز وضعف وأنت تنطق به، فهو عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

فإن كنت تُصيح وتُسيي واسم غيره غالب عليك فهذا سوء أدب، وسوء معاملة، وسوء اختيار، وما كان يليق بك هذا، فإنه هو الذي خلقك وأوجدك،

وإليه مرجعك ومصيرك، فكيف تذكر غيره أكثر منه؟ كيف يخطر على بالك غير اسمه أكثر؟

لا تسء الأدب مع الرب، ولا تسء الاختيار لنفسك، ولا تتجراً، وليكن هو الغالب على ذهنك وبالك في جميع أحوالك.

وقد سمعت ما برز إلى عالم الحس من قبل الخلفاء الراشدين - والمستكن في قلوبهم أكثر - فقد كان يُسمع كثيراً من سيدنا أبي بكر قوله: لا إله إلا الله أثناء الكلام، وفي كل أحواله.

ولا تكاد تجلس مع سيدنا عمر إلا وتسمع منه التكبير على لسانه؛ من أثر ما في قلبه، وكان يغلب على سيدنا عثمان التسيب في أحواله كلها؛ ويغلب على سيدنا علي قول: الحمد لله في كل أحواله، فقلوبهم بالله مولعة، وبالإله مولهة، وقد ربّاهم على ذلكم المربي المزكي المصطفى محمد صلوات ربّي وسلامه عليه.

فمن ربّي قلوبنا؟ وعلى أي شيء تربّت؟، وبمن تعلّقت؟ وماذا تذكر في ليلها ونهارها وسرّها وإجهارها؟

فيا مقبل ويا متوجه تولّع بالإله، واجعل ذكره غالباً عليك، واجعل اسمه هو الخاطر على بالك؛ قياماً وقعوداً، واضطجاعاً ودخولاً وخروجاً، وحركة وسكوناً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

هذا معنى اسم (الله) أما ..

(الرَّبُّ) فهو المالك، المربي، المولي للنعم، المحيط بالشيء، القدير على كل شيء، فكلُّها تدخُل في معنى الرَّبِّ، فهو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبِيُّ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]

وفي الفاتحة المعظمة ذكر الله ربوبيته للعالمين على وجه الخصوص؛ لأنَّ من سواهم دُونُهُم في المنزلة؛ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مَالِكِهِمْ، ومدبِّرِهِمْ، ومربيهِمْ، ومولي النعم عليهم، والمحيط بهم، والقدير عليهم، ويأتي في اللغة العربية لفظُ الرَّبِّ لأكثر من عشرين معنى.

ولكن تربيته لمحمد تميّزت عن كلِّ تربية؛ ولذلك كرّر في القرآن الكريم لفظُ (رَبِّكَ) عند ذكر كثير من آياته العظمى وآثار هداياته فأضاف وصفه إلى محمد، ففي آيات الوجود والكون يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُجَعِّلُنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]

وفي رده لعدوان أبرهة وأصحابه والفيل الذي كان معه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] وكان ذلك عام ولادته، قيل أنه قد وُلِدَ، وقيل أنه وُلِدَ بعدها بخمسين يومًا، وعندما ذكر الحادثة خاطبه بقوله: (رَبُّكَ) أنت يا محمد ولم يقل رب البيت وهو الذي ردّه عن البيت.

ولما ذَكَرَ الْهَدَايَةَ لِلأُمَمِ، مِمَّنْ يُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَعْلَمُونَ صِدْقَ أَنْبِيَائِهِمْ
وَيَتَّبِعُونَهُمْ، وَمِمَّنْ يُزِيغُهُمُ الشَّيْطَانُ وَيُلَبِّسُ عَلَيْهِمْ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الحج: ٥٢ - ٥٤]

هذا الذي بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّونَ.

مِنْ أَيْنَ عَلِمَ الْمَوْفِقُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ؟

قال: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، وهو ربُّ الأنبياء كلهم لكن خَصَّهُ بِخَطَابِهِ بِذَلِكَ
لأنَّ إِيْمَانَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لَهُ صَلََّةٌ بِالْجَنَابِ الشَّرِيفِ؛ فَقَالَ: ﴿مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا
بِهِ﴾ صلى الله عليه وسلم.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْخِطَابَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَجَدْتَ الرَّبَّ عِنْدَمَا يَذْكُرُ عَظِيمَ
تَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، بِهَدَايَةٍ أَوْ يَذْكُرُ شَيْئًا فِي الْكَوْنِ مِنْ آيَاتِهِ، يَقُولُ لَهُ:
﴿رَبُّكَ﴾، فَيَخْصُهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

وَفِي إِضَافَةِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْمَخْصُوصِينَ خُصُوصِيَّةً؛ وَلِهَذَا كَانَ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
حَرِّ النَّارِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ»^(١) فَأَيْنَ بَاقِيَ الْمَلَائِكَةُ أَلَيْسَ رَبُّهُمْ؟

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى عن عائشة، باب الاستعاذة من حر النار (٧/ ٢٣٤ / ٧٩٠٥)

بلى .. ولكن في هذا خصوصية.

ولأجل هذا المعنى في الألوهية يقول أولادُ سيدنا يعقوبَ لأبيهم يعقوب
﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلَّهِ أَبَائُكَ إِبراهيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]

فهل هو إله يعقوبَ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ فقط؟

هو إلهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما فِيهِنَّ، وإلهُ كُلِّ شَيْءٍ. والمعنى : أننا نمشي
على طريقتك، وسِرُّ ألوهيته لك التي تعرّف بها عليك وعرفته بها .
ولما أراد أن يعلمنا الاستعاذة من الشرورِ عَامَّةً جاء بالربوبية لِعُمومِ
الخلق؛ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢] من جميعِ
المخلوقات التي خلقها وشقّها.

فلما أراد الاستعاذةَ والتحصنَ لَنَا مِنْ شَرِّ إبليس الذي يوسوسُ لنا، جاء
بربوبيته للناس فقال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ② مَلِكِ النَّاسِ ③ إِلَهِ النَّاسِ
④ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٤]

وهو ربُّ كل شيءٍ فلماذا حصَّ الناسَ فقط؟

لأنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ وتعالى نظرٌ خاصٌّ إلى النَّاسِ، ففيهم معصومون
ومحفوظون مِنْ أنبياء ومقربين وصالحين، فباسم الربوبية نستعيذ مِنْ إبليس
وجنده، وهو الذي يَرُدُّ كيدَهُ عَنَّا.

فاعلم عظمة الربوبية، وسِرَّ الربوبية، فلا ربَّ سواه، ولا إله إلا هو تعالى في علاه.

كيف تعصي الذي من نطفة جلَّ سَوَاكَ

ثم غَذَّاكَ باحْسَانِهِ وَنَمَّا وَرَبَّكَ

مَنْ الذي خلق رُوحَكَ وَجَسَدَكَ وَحَوَّلَهُ مِنْ نطفة إلى علقَةٍ ثم إلى مضغَةٍ ثم إلى عظامٍ ثم كسى العظام باللحم حتى أنشأكَ خَلْقًا آخَرَ وَنَفَخَ فِيكَ الرُّوحَ؟ لا إله إلا هو ..

قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ

فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: ١٧ - ٢٠]

فأخرجك من بطن أمك، وقبل أن تخرج من بطنِ أمك انقلبت في بطنها فمن الذي علّمك أن تنقلب؟ ثم من الذي ألهمك بلع الطعام وقبض الثدي وقد كنت تتغذى في بطنِ أمك من حبل السرة؟

جلَّ الذي ربَّاكَ، فكيف تنساه أو تعاند أمره وقد أعطاك كُلَّ القُوى التي

فيك؟

يجب أن نخضع له، وأن نعرف إحسانه وتربيته لنا، وإحاطته بنا، وقدرته علينا سبحانه وتعالى؛ وأنه مالِكُنَا، ومُدبِّرُ أَمْرِنَا، ومُرَبِّينَا، والمنعم علينا.

وقد علّم رسول الله أمّ سلمة هذا الدعاء " اللهم ربّ النبيّ محمّد ، اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتنا " (١)
 فيا ربّ محمّد انظر إلينا بمحمّد وثبتنا على دربه وزدنا إيماناً و يقيناً ،
 وإخلاصاً وصدقاً وتوفيقاً .

اللهم بسرّ ربوبيتك له ربّنا وصفنا عن جميع شوائبنا ، واسقنا من أحلى
 المشارب من مشارب حبيينا ، وأنت راضٍ عنا برحمتك يا أرحم الراحمين .
 (القدر) : القدير اسمٌ وصفةٌ للحقّ تبارك وتعالى على صيغة المبالغة ، أي :
 واسعُ القدرة ، عظيمُ القدرة ، مُطلقُ القدرة .

والقدرة صفةٌ قائمةٌ بذات ربّنا جلّ جلاله ، يوجدُ بها ما يشاء ويُعِدُّ بها ما
 يشاء على وفق الإرادة والعلم .

وكلُّ ما سُمّي قُدرةً مما آتاه الله الكائنات فمجازية مؤتاة من قبله تعالى ،
 وليس لقادرٍ من أهل الأرض والسماء على شيءٍ مما أقدره الله تعالى عليه استقلالاً
 بقُدْرته تلك ؛ ولكنها منحةٌ من الحق متى شاء رفعها ؛ فالقدير على الحقيقة هو الله
 وحده .

والقدرةُ هو الوصفُ العظيمُ الذي تعلقُ بأساسِ معرفتنا بالله ، والمقصدُ
 الأسمى من خلقِ الوجودِ والكونِ ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة (٤/ ٢٠٠/ ٢٦٥٧٦) الناشر : مؤسسة الرسالة .

الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوهُنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢]

فَحِكْمَةُ خَلْقِ الْوُجُودِ كُلِّهِ أَنْ نَصِلَ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ الرَّفِيعَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِقُدْرَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ .

فَالْقُدْرَةُ الذَّاتِيَّةُ الْأَزَلِيَّةُ الدَّائِمَةُ لَيْسَتْ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَنْدِ إِلَى سِوَاهُ، وَصَدَقَ فِي رُكُونِهِ إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلَهُ وَاعْتَمَدَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَرَفَهَا هَابَهُ، وَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَسْتَصْعَبْ شَيْئًا يُرِيدُهُ مِمَّا فِيهِ مَرَضَاةُ هَذَا الرَّبِّ الْقَدِيرِ جَلَّ جَلَالُهُ.

فَقُدْرَةُ اللَّهِ طَلِيقَةٌ يُقِيمُ بِهَا الْأَسْبَابَ، وَيُبْطِلُ بِهَا الْأَسْبَابَ، وَقُدْرَةُ الْخَلْقِ قَائِمَةٌ عَلَى مَا آتَاهُمُ الْحَقُّ الْمُسَبَّبُ مِنْ أَسْبَابٍ، وَإِذَا اسْتَعْمَلُوا الْأَسْبَابَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُوقِفُوهَا أَوْ يَمْنَعُوهَا، فَمِثْلًا: جَعَلَ اللَّهُ النَّارَ سَبَبَ الْإِحْرَاقِ، فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ قُدْرَةٍ أَنْ يُدْخِلَ شَيْئًا مِنَ الْمَوَادِّ الْمُحْتَرِقَةِ فِي النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ لَهَا: لَا تَحْتَرِقِي. بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقُومَ بِقُدْرَتِهِ فِي حَيِّزِ السَّبَبِيَّةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا فَقَطْ بِمَنْعِ تِلْكَ الْمَادَّةِ مِنَ الْاقْتِرَابِ مِنَ النَّارِ، لَكِنْ أَنْ يُدْخِلَهَا النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ لَهَا: لَا تَحْتَرِقِي فَهَذَا مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُ، لَكِنَّ الْحَقَّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

وَهَذَا لَيْسَ فِي نَارِ الدُّنْيَا فَحَسْبُ، كَمَا حَصَلَ مَعَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عِنْدَمَا دَخَلَ النَّارَ فَلَمْ تُحْرِقْهُ، بَلْ فِيهَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذِهِ النَّارِ وَهِيَ نَارُ الْآخِرَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَحْرِقُ الْكُفَّارَ وَالْفُجَّارَ وَالْعَصَاةَ، لَكِنَهَا لَا تَحْرِقُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ إِلَيْهَا، وَلَا تَحْرِقُ

الشُّفَعَاءَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ إِلَيْهَا لِإِخْرَاجِ مَنْ يَأْذُنُ اللَّهُ لَهُم بِالشَّفَاعَةِ فِيهِمْ، فُسُبْحَانَ الْقَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَالْأَدَمِيَّ قَبْلَ أَنْ يُطْلَقَ الرَّصَاصَةُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَهَا فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ، لَكِنْ إِذَا انْطَلَقَتْ فَلَا يَسْتَطِيعُ صَرْفَهَا عَنْ هَدَفِهَا الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ، لَكِنْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُصِيبُ مَا يَشَاءُ وَيُبْطِلُ مَا يَشَاءُ.

وَقَدْ كَانَتْ الرِّيحُ تَهْبُّ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ عَلَى مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ وَمُعَسْكَرِ الْمَشْرِكِينَ؛ لَكِنَّهَا تَهْبُّ عَلَى مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ لَطِيفَةً لَا تَقْلَعُ خَيْمَةً وَلَا تَكْفَأُ قَدْرًا، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مُعَسْكَرِ الْمَشْرِكِينَ صَارَتْ شَدِيدَةً مُزْعِجَةً، اقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ وَكَفَّاتْ قُدُورَهُمْ وَهِيَ رِيحٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مُعَسْكَرَيْنِ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا سِوَى خَنْدَقٍ. وَفِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ كَانَتْ الْمَطَرُ تَنْزِلُ عَلَى مُعَسْكَرِ النَّبِيِّ فَثَبَّتْ لَهُمُ الْأَرْضَ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُرْسِيَهُ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] أَمَا فِي مُعَسْكَرِ الْمَشْرِكِينَ فَكَانَتْ زَلَقًا عَلَيْهِمْ وَهِيَ مَطَرٌ وَاحِدَةٌ، فُسُبْحَانَ الْقَدِيرِ.

وَكَانَتْ الرِّيحُ تَهْبُّ عَلَى سَيِّدِنَا هُوْدٍ وَجَمَاعَتِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَطِيفَةً بَارِدَةً، أَمَّا عَلَى الْكُفَّارِ فَكَانَتْ شَنِيعَةً شَدِيدَةً عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ تَأْتِي عَلَى الرِّجَالِ وَالْمَوَاشِي فَتَرْفَعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَتَطِيرُ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يُصْبِحَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ كَالرَّيْشَةِ، ثُمَّ تَضْرِبُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبِّ قَدِيرٍ، وَمَنْ مَعَهُ هَذَا الرَّبُّ وَعَرَفَ الرُّكُونَ إِلَيْهِ فَمِنْ أَيْنَ
يَأْتِيهِ الْهَمُّ أَوِ الْغَمُّ أَوِ الْكَدَرُ أَوِ الْخَوْفُ أَوِ الْقَلَقُ.

أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِشُهُودِ قُدْرَتِهِ، وَلَا طَفْنَا بِعَظِيمِ مُلَاطَفَتِهِ، وَرَزَقَنَا حُسْنَ النَّظَرِ
فِيمَا يُرْضِيهِ عَنَّا فِي الْحَسِّ وَالْمَعْنَى آمِينَ اللَّهُمَّ آمِينَ.

(مَا رِيحُ الصَّبَا مَالَتْ بِالْغُصُونِ) : وَلَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هُبُوبِ الرِّيحِ
مَعَانٍ وَاسِعَاتٍ، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَهْبُ مِنْ الرِّيحِ مَا يُسَمَّى بِالصَّبَا، وَمَا
يُسَمَّى بِالدَّبُورِ.

وَالصَّبَا مَا يَهْبُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَهَذِهِ الرِّيحُ أَشَارَ إِلَيْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِقَوْلِهِ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادُ الدَّبُورِ»^(١)، وَرِيحُ الصَّبَا هِيَ مِمَّا يُتَفَاءَلُ بِهِ،
وَتَكُونُ مِنْ عَلَامَاتِ إِدْرَاكِ السُّؤْلِ وَالْمَأْمُولِ.

وَالدَّبُورُ تَهْبٌ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَيَكُونُ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ
الْعَذَابِ وَالضَّرِّ، وَمِنْهُ الرِّيحُ الَّتِي هَبَّتْ عَلَى قَوْمِ عَادٍ، الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ بِالرِّيحِ
الْعَقِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلَتْهُ كَالْأَرْمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧]

وَالطَّفُ الرِّيحُ الَّتِي تَهْبُ.. النَّسِيمُ، وَهِيَ مَا يَهْبُ وَقْتُ السَّحَرِ وَأَوَّلِ
الْفَجْرِ فَهَذَا الطَّفُ الرِّيحُ؛ وَقَدْ اكْتَشَفَ أَهْلُ الظَّاهِرِ أَنَّ فِي خُرُوجِ مَا يُسَمَّى بِالْغَازِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، باب غزوة الخندق (٥/١٠٩/٤١٠٥)

الثَّقِيلِ فِي تَنْفَسِ الْهَوَاءِ مَا بَيْنَ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَكُونُ فِي اسْتِنشَاقِهِ قُوَّةٌ
لِلجَسَدِ، وَخَاصِيَّةٌ فِي إِذْهَابِ أَنْوَاعِ الْكَدَرِ وَالْهَمِّ عَنِ النَّفْسِ، فَيَتَعَرَّضُ لَهُ مَنْ كَانَ
يَمْشِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؛ فِي خُرُوجِهِ لِأَدَاءِ صَلَاةِ الصُّبْحِ، أَوْ لِحُضُورِ مَجَالِسِ
الْأَسْحَارِ، وَيُحْرَمُ مِنْهُ أَرْبَابُ النَّوْمِ وَالْغَفْلَةِ.

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا تَأْثِيرَ لِرِيحٍ وَلَا غَيْرِهَا فِي إِيجَادِ
الْأَشْيَاءِ، وَلَكِنَّهَا عَلَامَاتٌ يَقِيمُهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ .
وَهُنَاكَ نَسَائِمٌ وَرِيَّاحٌ مَعْنَوِيَّةٌ تَهْبُ مِنْ أَلْطَافِ اللَّهِ، وَعَجَائِبُ جُودِهِ
وإِحْسَانِهِ، يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الصَّالِحُونَ كَمَا فِي قَوْلِهِمْ:

أَوْ هَبَّتِ النَّسَمَاتُ بِالْعَرْفِ الْمَعْنِيِّ فِي السَّحَرِ

وَأَشَارَ الْإِمَامُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ إِلَى رِيحِ الصَّبَا، الَّتِي فِي هُبُوبِهَا عَلَامَةٌ لِنَصْرِ
اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالهْدَى .

جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْ تَهْبُ عَلَيْهِ نَسَمَاتُ اللَّطْفِ وَالْعَطْفِ وَالرِّضَا، وَرَزَقَنَا حَقِيقَةَ
الْمَحَبَّةِ وَالصَّدْقِ وَالْإِقْبَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَالتَّسْلِيمِ لِمَا بِهِ قَضَى، وَرَعَانَا رِعَايَةً يَقِينًا بِهَا
الْأَسْوَاءُ فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى، وَالْحَقَنَّا بِهَا فِي أَهْلِ التَّقْوَى فِي لُطْفٍ وَعَافِيَةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

